محمد يونس هاشم

ليت قومي يعلمون

قصص قصيرة

الطبعة الأولى
٢٠١١-٢٠١٢
2012-2011

الناشر

دار زهور المعرفة والبركة

٣ ش مكة المكرمة الطريق الأبيض أرض اللواء الجيزة

الكتـــــاب : ليت قومي يعلمون

المؤلـــــف : محمد يونس هاشم

الناشـــــر : زهور المعرفة والبركة

تليفـــــون : ٠١٠٠٠٧٤١١٦٤ - ٠١٢٢٩٠٦٩٣١٨

الطبعـــــة : الأولى عام ٢٠١١

المستشار الثقافي والإعلامي : محمد يونس هاشم

مـــدير النـــشر : أسامة عبدالرحمن

رقـــم الإيـــداع : ٢٠١١/١٤٢٣٤

الترقـيم الـدولي : 978-977-5172-02-0

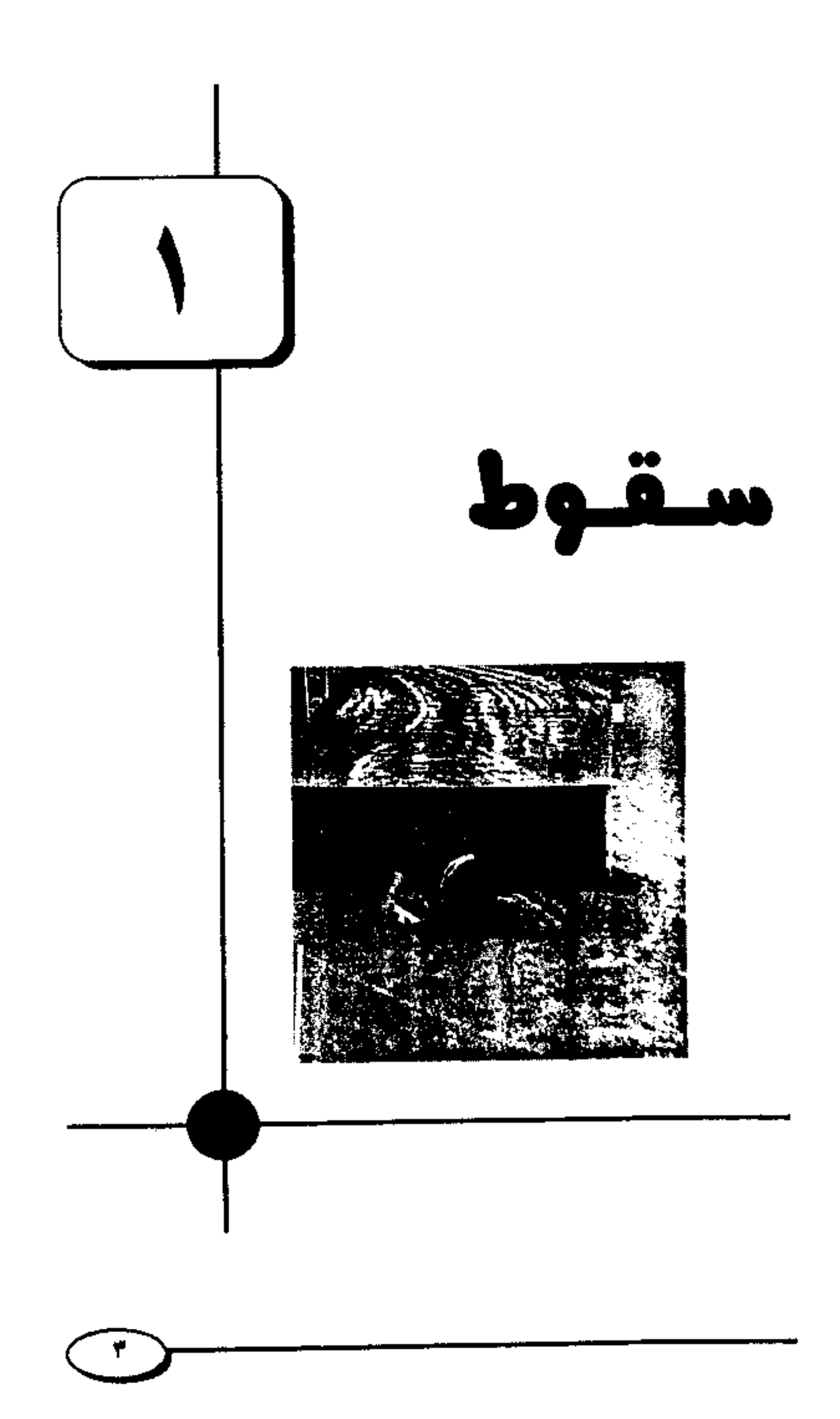
دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

هاشم، محمد يونس
ليت قومي يعلمون: قصص قصيرة /
محمد يونس هاشم ـ الجيزة: دار زهور المعرفة والبركة، ٢٠١١
ص؛ سم
تدمك ٠ ٢ ٠ ٥١٧٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص العربية القصيرة
أ ـ العنوان
٨١٣,٠١

١

سقوط



الشماتة تطل من عيـون أكثـرهم،
والبقية يرثون لحالي.. الرثاء مثل
الشماتة كلها سكاكين تطعـنني في
وجهي، لكني سأقاوم لـن أمـوت..
لن أحني رأسي.. لن أبكي.

رآه زميل قديم حاول سيد أن يروغ منه ولكنه هجم عليه في تحد عجيب.

- سيد.. كيف حالك ؟

- أهلاً .

- ماذا هنا ؟

-............

- آه.. تذكرت.. لا تحزن السنة تمر بسرعة، وإن شـاء الله تـنجح وتصبح مثلي.

استبد به الغضب من كلام هـذا الجاهـل النـاجح، تـرك زميلـه الشامت دون أن يستأذن وأخذ يصعد السلم كعجـوز يتـسلق جـبلاً وعراً، لأول مرة يحس بارتفاعه، ومشقة صعوده، كان يتخطـى عـدة درجات في القفزة والواحدة، والآن يصعد درجـة.. درجـة.. متكئـاً على الإفريز، منكس الرأس، تذكر أنه أقسم إلا يطأطئ رأسه أبـدا..

رفع رأسه في كبرياء مصطنع، عند أخر درجتين رأى طالبة تغطي وجهها بالأصباغ وقد تعرى جسدها من الثياب همَّ أن ينكس رأسه خجلا تذكر القسم فلم يغض طرفه، في نهاية السلم وجد ثلة من الطلاب والطالبات يتصايحون كأنهم يتشاجرون لم يفهم من كلامهم شيئا لكن الشيء الوحيد الذي كان متأكدا منه أنهم لم يكونوا يتحدثون في موضوعات علمية أو دراسية .

أخذته أقدامه جهة اليسار، وبعد أن خطا عدة خطوات تذكر أن المحاضرة في مدرج ١٨ توقف فجأة وغير اتجاهه إلى جهة اليمين عندما مر بثلة الطلاب مرة أخرى أحس أنهم يضحكون عليه همَّ بتنكيس رأسه لولا أنه تذكر قسمه .

نتيجة العام الماضي ما زالت معلقة .

(مازال سلاح الجبناء مشهراً)

داست النتيجة على رأسه كاد ينكسه ولكنه قاوم بكل قوته، وأشاح بوجهه عنها .

رأى أستاذ النقد يخرج من المحاضرة بسرعة، وبعض الفتيات الحسان يجرين وراءه تملكته رغبة جامحة أن يبصق عليه لكنه ازدرد ريقه فأحس بمرارة في حلقه، تجنب أن ينظر لليمين لئلا يرى أحداً لكنه فوجئ بمن ينادي عليه .

- سيد.. سيد

عندما رأى صاحب الصوت انبسطت أساريره، وابتسم وهو يقول : خالد.. أهلا .

ولكن سرعان ما انقبضت نفسه وإن كانت شفتاه ما زالتا منفرجتين (الرثاء مثل الشماتة) .

- سيد كيف حالك ؟

- الحمد لله .

- لقد اشتقت إليك فجئت لأراك.. ما أخبارك ؟

- لا جديد .

- أنا سعيد أنك انتظمت في الدراسة المواجهة هي خير وسيلة لنزال الجبناء .

ثم قال خالد مداعباً : أتتصور أني أحسدك .

- علام !!

- لأنك تجد ما تشغل به وقتك، أما أنا فلا أجد ما أعمله.. والله أيام الدراسة كانت نعمة.. ليتها دامت .

- (أنت تقول ذلك لأنك ..)

- أسمعت يا سيد آخر خبر .

- ما هو ؟

- لقد عينوا ناهد معيدة !

- أيعقل هذا !!

- والله هذا ما حدث ناهد التي لا تستطيع نطق جملتين صحيحتين عينت معيدة !!

- ناهد هذه لم أسمعها يوما تناقش أستاذا، أو تبدي رأيا في شيء لقد كانت....

- الشيء الذي لا أستطيع أن أصدقه.. كيف ترسب في أربع مواد ؟.. أكيد هناك خطأ.. لماذا لا تطلب إعادة تصحيح هذه المواد أو على الأقل تطلب إعادة رصد درجاتها ؟ أليس من الممكن أن...

- ألا تلاحظ أن المواد الأربع هي نفسها مواد الأساتذة الذين...

قاطعة خالد قائلا :

- صفاء آتية سأتركك الآن وأراك فيما بعد.. سلام

- خالد.. خالد.. انتظر.. انتظر (صفاء ماذا تفعل هنا ؟ ليتها لا تراني ليتها...)

- سيد أنت هنا أنا حظي سعيد أن أراك .

قال سيد وهو يتظاهر بالثقة والثبات :

- أهلا.. صفاء.. لماذا أنت هنا اليوم ؟ هل اشتقت للكلية ؟!

قالت وهي تشمخ بأنفها :

- لا.. أنا التحقت بقسم الدراسات العليا .

- ماذا ؟!!!!

- دراسات عليا.. أيحزنك هذا ؟

لم يصدق سيد ما سمعه (صفاء تدرس دراسات عليا !!.. صفاء ! لقد كانت مفاجأة أن تنجح.. أتراها فعلت هذا لتثير غيظي ؟.. لتثبت أنها أفضل مني ؟.. لتنتقم مني ؟..)

- مالك مطرق هكذا.. ألا تصدق أم أنك تعتقد أني لا أصلح ؟!

- (ما هذه الجرأة التي تكلمني بها ! متى اكتسبتها ؟ !.. لقد أجلت مناقشة بحثها إلى آخر العام لأنها تخشى مناقشتي لها، وعندما قمت لأناقشها كادت تبكي وهي ترجوني أن أرحمها من مناقشتي.. وها هي تحقق الحلم الذي عشت له.. إنها تريد أن تنتقم مني لأني الوحيد الذي صمد أمام جمالها.. أنا الوحيد الذي كان لا يأبه بها.. انتظرتْ وانتظرتْ وأخيرا قتلت كبرياءها وطأطأت رأسها أمامي.. والآن بعث النجاح كبرياءها، وتريدني أن أطأطئ رأسي أمامها.. هيهات.. هيهات)

يحس الآن أنه في حاجة شديدة في أن تعود صفاء كما كانت الطفلة الساذجة التي تسأله عن البحر الذي أتى منه بهذه المعارف.. تسأله عن البيئة العبقرية التي أنجبته.. تسأله عما يحب ويكره.. (كانت أسئلتها الطفولية تثير فيَّ رجولتي ولكن يبدو أن الطفلة الصغيرة قد كبرت، وأن رجولتي قد شاخت)

- لماذا أنت ساكت هكذا ؟.. لم تكن تكف عن الكلام .

قالت صفاء هذا بشيء من السخرية .

- لقد أدركت أنه لا جدوى من الكلام فقررت السكوت .

قالت وهي لا تحاول إخفاء سعادتها :

- خيرا فعلت .

ونظرت في ساعتها وقالت :

- لا أستطيع أن أبقى معك أكثر من هذا فعندي مهام أخرى في انتظاري.. إذا احتجت إلى شيء في الدراسة فلا تخجل من طلبه مني، وتركته وذهبت .

- ("إذا احتجت إلى شيء في الدراسة فلا تخجل من طلبه مني!" هذه هي نفس العبارة التي كنت أقولها لها في نهاية كل حديث كان يجري بيننا !!)

أحس بأن صدره يضيق، وأن أنفاسه تهرب منه، سقطت رأسه على صدره وعندما أفاق رفعها بسرعة وتلفت حوله، جر قدميه الكسيحتين ورمى بجثته الهامدة على المقعد.. لا أحد يعرفه من طلاب هذه الدفعة .

عندما رآه الأستاذ رماه بنظرة شامتة وقال له :

- لماذا أنت هنا ؟!!

لم يستطع سيد النطق، ازدادت جرأة وشماتة الأستاذ :

- أم تراك رسبت.. هل رسبت ؟

لم يستطع سيد النطق، وصرف وجهه إلى الأرض، زادت شماتة الأستاذ .

- أنت لا تحسن إلا مشاكسة أساتذتك فقط.. بدلا من المشاكسة ذاكر أفضل لك .

- (أي قناع يرتديه هذا الرجل ؟!!)

- الآن نبدأ المحاضرة .. وقبل أن ندخل في صلب الدراسة لابد من مقدمة تاريخية سيتحدد على ضوئها المنهج الذي سنتبعه في دراستنا كلها.. في البدء كانت الشيوعية... وفي المنتهى ستكون .

- (نفس الكلام.. نفس الجمل.. نفس الكلمات.. حتى طريقة الإلقاء الخبيثة لم تتغير، وكأنه كان يحرث فيما مضى في الماء.. نظرياته

المستوردة الحمراء لا تحتاج سوى شعاع أصيل ليكشفها.. لا أحد يعترض إنه يشوه تاريخنا.. لا أحد يرد عليه.. إنه يتنكر لأمجادنا.. لا أحد يعترض.. إنه يطمس تراثنا.. لا أحد يفتح فمه حتى ليتثاءب.. إنه يشكك في معتقداتنا.. لا أحد يتنفس حتى ليحيى)

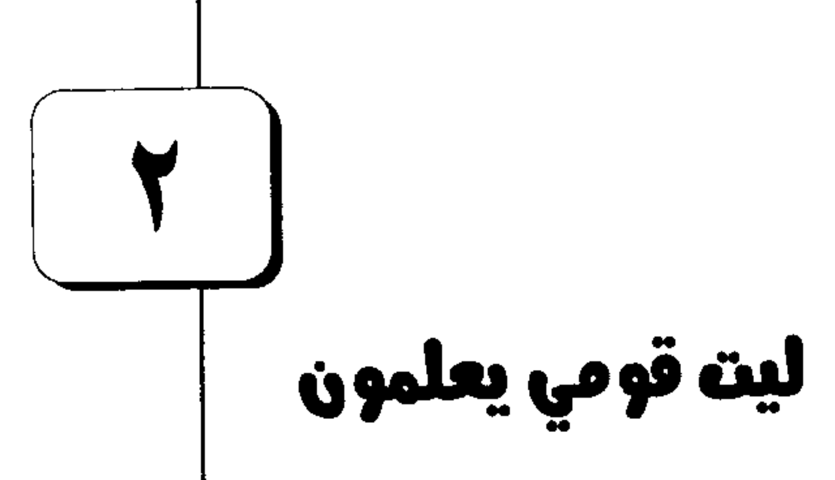
أحس سيد أن قلبه يتوقف عن الدق، أحس أن أنفاسه قد تجمدت في رئتيه، هب واقفا، وخرج دون استئذان قبل أن يموت، دفع الباب وراءه بقوة فأحدث دويا هائلا (لعل أحدا يفيق) .

خرج ولم يتبعه أحد، سار في تثاقل شديد كما العجائز، شعر أنه غريب عن هذا المكان، غريب عمن فيه، غريب وهو الذي كان بالأمس صوته تردده هذه الجدران، وشهبه تبدد هذه الشبهات، أجساد كثيرة تصطدم به في سعيها الحثيث نحو شيء لا يعلمه لمح بين الأجسام معيدا كان صديقا له يمر بسرعة دون أن يصطدم به، أو يلمحه، قال له هذا الصديق يوما إنه رأى الأساتذة بنفسه يقدرون درجات الامتحان دون أن يقرءوا سطرا واحدا، لم يصدقه يومها، كان يتمنى أن يسمع هذا الكلام منه اليوم، سار في تثاقل شديد منكس الرأس تذكر أنه أقسم ألا ينحني حاول أن يرفع رأسه لم يستطع، بدأ ينزل السلم كاد أن يسقط عند أول درجة، ولكنه توكأ على إفريز السلم، نزل ثلاث درجات سيطر عليه إحساس بأن الطلاب والأساتذة يشاهدونه من أعلى السلم وهو ينزل منكس الرأس يشاهدون أسد الغابة عندما يتحول إلى أسد في

سرك يصعد السلم ويهبط السلم تحت تهديد السوط (سلاح الجبناء) تملكه هذا الإحساس لدرجة أنه رفع رأسه ليرى المشاهدين رفع رأسه ونظر للخلف، وفي هذه اللحظة زلت قدمه فسقط.. يتدحرج.. يتدحرج.. أحدث سقوطه دويا شديدا، سمعه كأنه أصوات ضحكات عاليه ربما ظنوا أن ذلك إحدى حركات الأسد البهلوانية كان السلم عاليا و كان الهوي سريعا، وفي النهاية قفزه السلم بالخارج اختلطت برأسه كل المشاهد والصور (الجامعة... أزياء الطالبات... المظاهرات... مناقشه حامية حول أبي تمام... جدال حول عبد الناصر... الأقنعة الزائفة...المكتبة المركزية... النتيجة القاتلة... الشماتة... السقوط المدوي...)

أفاق.. وجد نفسه في العراء.. أحس ببرودة شديدة.. وجهه ملطخ بالدماء.. جسده عار من أي رداء.. دار ببصره يبحث عن أن شيء يتوكأ عليه وجد حذاءً لامعاً.. صعد ببصره وجد ساقين متناسقتين في جوربين حريريين.. رفع رأسه أكثر رأى رداء أحمر فاقع اللون.. صعد أكثر فأكثر.. في النهاية رأى وجهاً مصعراً خده، وأنفاً شامخاً.. هذا الوجه يعرفه من قبل.. تذكره.. سقطت رأسه، ولم يرفعها ثانية .





ليت قومي يعلمون



منذ سمع القصيدة ولم يبرحه الصراع .

- (ترى هل يحبها حقا ؟ أم هو خيال شاعر ؟ رغم أنه صديق عزيز إلا إنه عنيد، رغم أنه يبدو معي كثير الكلام إلا أنه كتوم وعالمه الداخلي هو المنطقة المحرمة المحظور على أي إنسان الاقتراب منها أو التكهن بما فيها، هو يتكلم أحيانا عن عواطفه لكن أحس أنه لا يقول الحقيقة ؛ فهو يحاول أن يبدو قويا متماسكا شجاعا يَملك ولا يُملك، لكن هذه المرة لابد أن أقتحم حدود صمته، لابد أن أغزو قلبه وأفتش في حناياه عنها، مهما كلفني الأمر فهي خطوة لابد منها حتى لا يحطم رأسي الشك، لكن عليَّ أن أكون حكيماً فهو ذكي ومن الصعب أن تعرف منه ما لا يريد قوله، لكن لا سبيل إلى معرفة الحقيقة إلا منه فصاحبتنا بألف وجه...)

رغم أن المحاضرة بدأت إلا أنه أمسك بورقة وكتب عليها .

" عزيزي أحمد، قصيدتك الأخيرة نطل منها فتاة جميلة، هل في الأمر شيء ؟ "

- إن القضية التي نحن بصددها اليوم خطيرة ولابد فيها من المصارحة التامة .

– "عزيزي خيري، لا أدري ماذا تقصد بالضبط ؟ إن كل قصائدي تقريباً تطل من نوافذ أبياتها فتيات حسان مَن تعني بالضبط ؟"

– إن ما يحدث الآن نتيجة طبيعية لأخطاء متراكمة كثيرة .

– " أحمد الأمر جد فلا تمزح هذه الفتاة هل لك بها علاقة ؟"

– " يبدو أنك مهتم بهذا الموضوع بالذات، إن في الأمر شيئاً، تكلم لا تخش شيئاً، تكلم ولن أقول لأحد ! "

- فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

– " أنا الذي أسألك لا تَـرُغْ من السؤال، وإلا اتخذت من مراوغتك إجابة . "

– " يبدو أن الموضوع كبير انتظر بعد المحاضرة " .

– لا تلوموا الحكام فأنتم الذين نصبتموهم .

– " أنا أريد الإجابة الآن، ومرة ثانية أحذرك من المراوغة حفاظاً على صداقتنا، واعلم أن أية إجابة لا تؤثر على علاقتنا مطلقا بل ربما تقويها، وفي مرات كثيرة خرج الصديقان في مثل هذه الحالات أكثر صداقة . "

– إذا أردت أن يحكمك أبو بكر فكن أنت عمر، ونحن لسنا...

– " كلامك يوناني لا يفهم، ويبدو أنك تريد أن تفسد عليَّ المحاضرة، وعلى كل فلا بأس من الإجابة على ما فهمت من سؤالك.

اعلم يا صديقي العزيز أن أية فتاة لا تعدو عندي أكثر من كونها ملهمة، صورة جميلة أسعد برؤيتها وأعمل فيها خيالي فأنفث فيها من روحي فإذا هي " فينوس " تسكن أعالي الجنان، وهناك أكتب قصيدتي ثم ألقي بصاحبتها فتأخذ في السقوط بقدر ما أخذت في الصعود، وإلى غيرها أعود . هذا هو دور المرأة في حياتي، أما أن أبكي وأنوح، وأشكو وأبوح، فهي أمور قد تركناها لكم أنتم الذين جرأتم علينا النساء . أرجو أن تكون هذه الإجابة شافية لا تحتاج إلى مزيد من الإيضاح، وتمنياتي لك بالشفاء العاجل . "

بعد أن انتهى أحمد من الكتابة، وخيري يختلس النظر إلى ما يكتب، أعطى أحمد الورقة لخيري ثم أخذها منه ثانية بسرعة وكتب فيها بخط كبير .

- " نسيت أن أسألك من هي ؟ "

تشاغل أحمد بالاستماع للمحاضرة .

- من يجعل ظهره مطية فلا يلومن من يركبه، ومن ظلم نفسه فلا ينتظرن من عدوه...

- " أيها الصديق العنيد كفى عنادا وكبرياء، إن داخل كل رجل كبير مراهق صغير وهذا ليس عيباً ولا إخلالا بالرجولة إنما من القوة الاعتراف بهذا، ومن العجز كبته وكلامك العقلاني هذا لا يستر مشاعرك الداخلية . بصراحة أكثر ولنفهم ما تفهم – فقد نفد صبري – لقد لاحظت في قصيدتك الأخيرة بشكل لا يقبل الشك أنك تعني "

مني " زميلتنا، وتأكدت من حبك لها، وهذا أمر عادي لا حرج فيه أمر يحدث لكل الناس، وليس فيه ما يخجل أو ما يخدش الحياء ولا الاحترام، وأنت تعلم أن عظماء التاريخ كانوا عشاقاً ولهين "

- ... وفي الأندلس وفلسطين، وأخيراً في الخليج .

- " الآن فهمت، وإنها لمفاجأة كبيرة أن أعلم أنك تحبها واعذرني لأني لم أفهم من البداية ؛ لأني لم أكن أتصور أنك... المهم اعلم يا صديقي العزيز أني لا أحبها ولا أحب سواها، وأن أقصى ما يمكن أن تمثل لي هو كونها ملهمة ألهمتني إحدى قصائدي ونسيتها . أما عن موضوع المراهق الساكن في أعماق كل إنسان فالشعر هو متنفسه الوحيد أما أن يقود حركتي ويملك نفسي فهذا ما لا أرضاه لنفسي ولا أرضاه لك، والمغامرة في مثل هذه الحالات لعب بالنار . "

- حتى لو علمنا فإننا لا نفهم ما تعلمناه .

- "صدقني إن الاعتراف بالحب قوة وليس ضعفاً، وإن كنت تحبها فلسنا أول صديقين يقعان في حب فتاة واحدة، وصدقني إن هذا لن يؤثر مطلقاً على علاقتنا بل يقويها، إن قصيدتك فيها من الوصف، والصدق ما يجعلني متأكداً من النتيجة التي خرجت بها . "

- " أقسم لك أني لا أحبها، لماذا لا تصدقني ؟ أنا لم أكذب في حياتي قط، وهذه هي الحقيقة . "

- شغلونا بلقمة العيش، وبالمخدرات والإعلام الفاسد عن مناقشة قضايا...

- " قسمك هذا يؤكد صدق ظنوني، مرة ثانية أو ثالثة أ أكد لك أن الحب ليس ضعفاً وأن علاقتنا لن تتأثر بهذا الموضوع "

- ... رحماء بينهم . لقد عكسنا الآية .

- " أعتقد أن الذي يحسم هذا الموضوع أن أحدثك عن جانب من نفسي لا يعلمه عني أحد . أنا أكره القيود ولو كانت حباً ؛ فأنا من قوم الكلمة عندهم رصاصة، والمرأة قصاصة، والموت صديق، والشوك طريق، لا يغرنك هندامي الحضري، فأنا يا صديقي رجل بدوي . "

- " رغم أني لا أصدق هذه المبالغات إلا أني بدأت أميل لتصديقك "

- أفيقوا يا قوم، ثوروا أو موتوا .

- " إن إصرارك على الحديث عنها يجعلني أفكر فيها ."

كتب أحمد ذلك وهو يبتسم ابتسامة طويلة .

- " عرفنا يا عم أنك لا تحبها، فماذا تقول فيها ؟ "

- ماذا تنتظرون من أمة جاهلة وحكام فَسَقَة !

- " أقول فيها ما قاله الله في الخمر والميسر (فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) أصارحك القول يا صديقي إن شيئا يلح عليَّ من زمن بعيد ولم أصل فيه لشيء والعجيب أني لم أكتبه في أشعاري رغم إحساسي الشديد به هذا الشيء هو الجمال

الحسي في النساء لماذا له تأثير السحر في الرجال ؟!! وأعجب من رجال محترمين تجذبهم هذه المغناطيسية الزائفة التي لا دخل لصاحبتها فيها، تسألني رأيَ وأقول لك جردها مما لا إرادة لها فيه، وانظر إلى ما لها فيه إرادة، وأنا واثق من موضوعيتك، وإياك أن تقول إن الحب قدر ونحن لا نختار بإرادتنا، إنها القسمة والنصيب، فإن كنت تؤمن بهذا الكلام فحاول أن ترد على هذا السؤال، كم إنسان أحب قبيحة لأخلاقها، وأبغض جميلة لسوء أخلاقها ؟ نحن يا عزيزي نخدع أنفسنا عندما نبحث عن أشياء أخرى غير الجمال في الجميلات، فالحقيقة أنهن لا يملكن شيئا جميلا سواه "

- "هل رأيت منها شيئاً مشيناً إن كنت رأيت فأخبرني فأني لم أر"

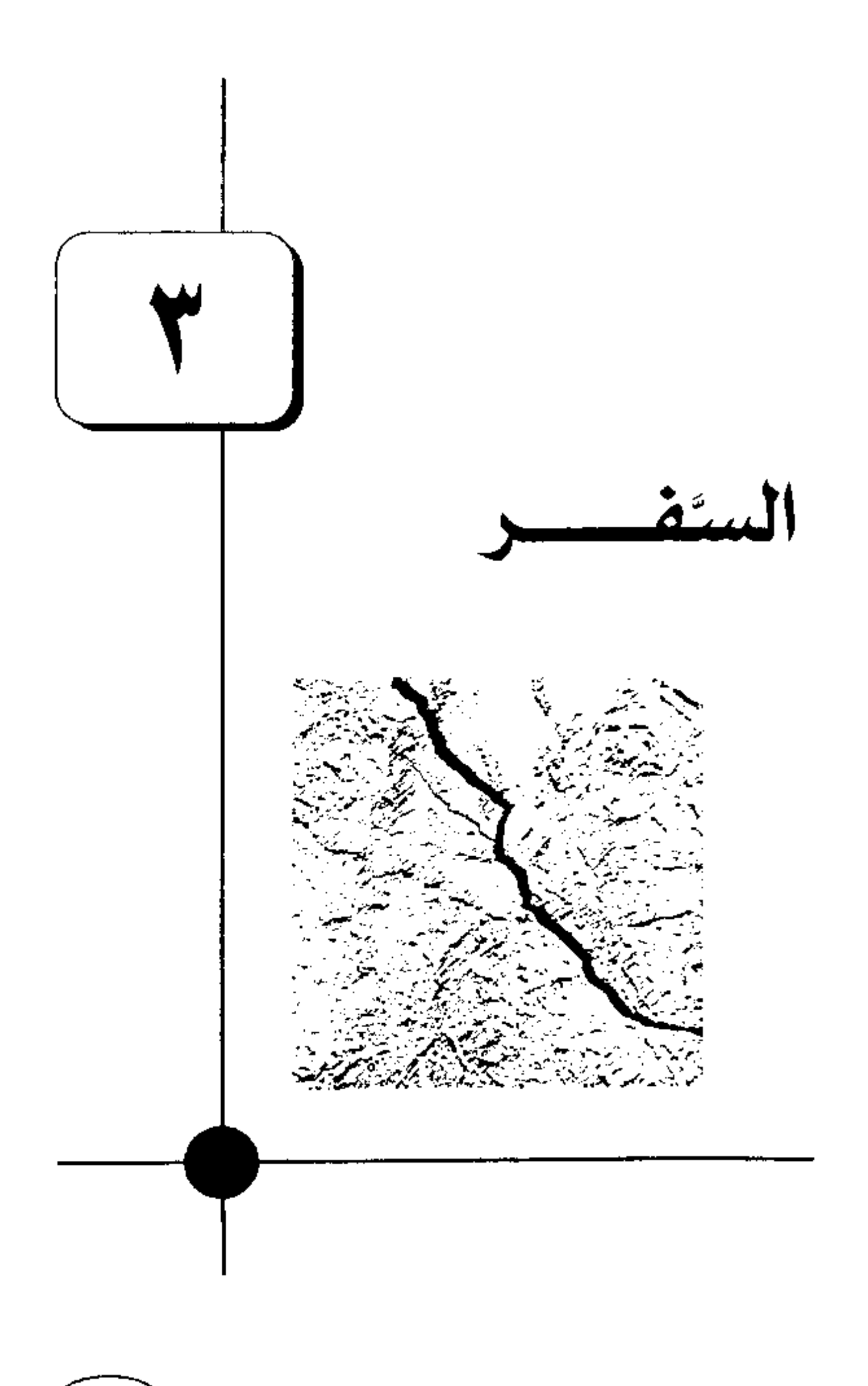
- أ تدرون من المستفيد من هذا كله ؟...

- "عزيزي العاشق الولهان إنك لم ترَ، ولن ترى ؛ لسبب بسيط جدا أن مَن ينظر إلى وجه " منى " لا يرى . "

- الأمل معقود عليكم أنتم أيها الشباب، يا صناع المستقبل المشرق، الأمل معقود عليكم في أن تدركوا ما لم يدركه...

دقت ساعة الجامعة، وبدأت الأصوات تعلو، وحركة الطلاب تزيد، فلم يكونوا في حاجة للمزيد، وأحس الجميع بصداع، وصوت الأستاذ وسط الضجيج ضاع .





٣

السَّفــــر



(القاهرة كما هي المدينة الجميلة، كل شيء فيها جميل حتى الزحام والضوضاء.. الحارة ضاقت كثيراً، وكثرت بها أكوام القمامة.. واقيمت فيها عمارتان غيرتا من معالمها المحفورة في ذاكرتي.. بيتنا يبدو أحقر مما تركته .

لا أدري كيف سأعيش هنا إلى أن أشتري شقة تتناسب مع.. ؟)

كان الجيران يطلون من شرفاتهم الصغيرة ويتهامسون .

(يجب ألا أهتم بمثل هؤلاء إن مركزي اليوم لا يتناسب مع الحديث مع هؤلاء إنهم يذكروني بحياتي قبل السفر)

شمخ بأنفه ومشى في خيلاء .

(ما هذه السلالم المتآكلة، وهذه الرائحة الكريهة ؟)

تعثر في إحدى درجات السلم كاد يسقط لكنه أمسك بسور السلم، أخرج منديله الأبيض الحريري ليمسح يده مما علق بها من أوساخ .

(كيف يسكت الناس على هذه الأوساخ ؟! وكيف كنت أسكن هنا ؟!) بحث عن زر الجرس لم يجده، تذكر، طرق الباب القديم ثلاث طرقات خفيفة، خرجت امرأة عجوز متشحة برداء أسود، حدقت فيه لحظة.. ألجمتها المفاجأة .

- أمي

- من ؟ جمال.. جمال ابني .

أحضان.. قبلات.. دموع.. زغاريد..

(منذ خمس سنوات لم يفرح هذه الفرحة.. منذ خمس سنوات لم يحس بهذا الدفء.. كانت الحياة هناك باردة جافة .)

عندما رأى أمه عاد طفلاً بين يديها سالت دموعه المتحجرة في العيون، وتدفقت دماؤه المتجمدة في العروق .

بدأ يحدق في الحجرة، وما فيها من أثاث.. الأَسِرَّة القديمة.. الأردية بالية.. الطلاء المتآكل..

(البيت لم يتغير فقط أشعر أنه ضاق بعض الشيء.. تحت هذا السقف الخشبي عشت عمري الحجري، وعلى هذا السرير الخشن عشت أحلم بالحياة الناعمة، وعلى هذا الكرسي ذي الأرجل الثلاثة كنت أذاكر.. أفكر.. أتخيل.. كانت أياماً جميلة رغم قسوتها .)

- الحمام جاهز.. هيا لتستحم .

في الحمام الضيق اغتسل من غبار السفر.. تطهر من أفكار نمت في الغربة.. تمنى أن يرى كل الأصدقاء.. يعانقهم.. يحادثهم.. يمازحهم .

ارتدى ملابسه الأنيقة بسرعة وخرج على الفور.. أخذ يعد درجات السلم .

(أربعة وخمسون درجة تماماً كما كانت.. في هذا الفناء كنت ألعب مع عادل وسميرة.. في هذه الحارة لعبت الكرة مع أولاد الحارة.. كنت ماهراً في لعب الكرة .)

- ماهر موجود ؟

- غير موجود.. من أنت ؟

- سأعود إليه مرة ثانية .

(كم كنت أتمنى أن أراه لقد أوحشني كثيراً.. ترى إلام صارت حاله ؟.. هل وجد عملاً ؟.. هل مازال يذكرني ؟.. لقد أرسل لي خطابين فور سفري، وبعد ذلك.. أمه لم تعرفني يبدو أني تغيرت كثيراً.. البدلة الأنيقة، والشارب، والنظارة.. ليس أمامي سوى أحمد ليتني أجده.. أريد أن أتحدث إلى أحد)

- أحمد غير موجود .

أخذ يسير.. يحدق في الوجوه عله يرى صديقاً قديماً أو إنساناً يعرفه.

(لا أحد يعرفني.. لا أعرف أحداً.. أشعر أني غريب.. غريب في وطني.. في الكويت كنت غريباً أيضا.. شتان بين الغربتين.. كل

الوجوه جديدة.. صديقان أو زميلان عائدان من المدرسة يتحدثان ويضحكان.. فتى فتاة يتهامسان.. بعض الناس ينتظرون الأتوبيس.. رجل يسير بسرعة.. كل واحد يعرف إلى أين هو ذاهب)

وجد مكتبة لبيع الكتب تأملها .

(أسعار الكتب ارتفعت جداً.. منذ خمس سنوات فقط كان أغلى كتاب لا يزيد عن عشرة جنيهات.. الآن أرخص كتاب لا يقل عن ثمانية جنيهات.. منذ خمس سنوات لم أقرأ سوى الجرائد.. كانت الكتب كل حياتي والشيء الذي كان يزعجني حقاً هو ارتفاع أثمانها.. كنت أستعير الكتب من المكتبات والأصدقاء.. أقرأ.. وأنقل.. أناقش.. لم تعد الأموال هي المشكلة الآن لكنني فقدت الرغبة في القراءة .)

بعد تردد كبير اشترى كتاباً.. ديوان شعر لشاعر رومانسي.. الوقت يمر ببطء.. رفع يده ليعرف الوقت ؛ لم يجد الساعة .

(لا بد أني نسيتها في البيت.. الساعة الآن تقريباً الخامسة.. لا.. لا.. لقد خرجت من البيت في الرابعة وهي الآن لا تزيد عن الرابعة والنصف.. الوقت يمر ببطء شديد .)

وجد نفسه في شارع الجامعة .

(الجامعة.. أيام الدراسة الجميلة.. المحاضرات.. المناقشات.. الأبحاث.. الزملاء.. الزميلات.. كان الوقت لا يكفي الأعمال .)

شاهد بعض طلاب الجامعة .

(ليتني أعود واحداً مثل هؤلاء.. أجلس في قاعات المحاضرات نستمع ونستمتع، وبعد المحاضرة نتناقش.. نضحك.. نغني.. الجامعة هي حلمي المتجدد.. مرت أيامها بسرعة عجيبة.. فور تخرجي أرسل لي زوج أختي عقد عمل مغرٍ في الكويت.. رفضت السفر ؛ إن حياتي هنا في الجامعة.. هنا أساتذتي وأصدقائي.. أجمع الكل على أن سفري فرصة لن تعوض، وحلم يحلم به كل شاب " سافر لعام واحد وجرِّب " وسافرت.. الوقت لا يمر.. الحياة تسير وأنا الوحيد المتوقف .)

وقف على محطة أتوبيس الجامعة .

(على هذه المحطة كنت أقف مثل هؤلاء.. كنا نضحك في الجامعة، ونتزاحم على الأتوبيس خارجها.. كنا سعداء.. كل الطلاب يعرف بعضهم البعض، أنا الوحيد الغريب بينهم، الكل يبتسم ويضحك.. الأمل والحيوية والنشاط أشياء تفرقهم عني)

أخرج ديوان الشعر من لفافته وأمسك به كما يمسك الطلاب بكتبهم .

(أحس أني كهل مع أني لا أكبرهم سوى بخمس سنوات فقط، وربما فيهم من هو في مثل سني)

الأتوبيسات تأتي مزدحمة.. يهرول الطلاب نحوها يركب من يركب وينتظر الباقي.

(أنا أستطيع أن أشترى سيارة ومع ذلك اشتقت لركوب الأتوبيس.)

أحس أنهم تنبهوا لوجوده ترك المحطة ومشى.. حديقة الحيوان أغلقت أبوابها.. لا يسمع بها إلا صوت العصافير. على كبري الجامعة رأى رجلاً وزوجته.. كانت الزوجة تداعب زوجها مداعبات رقيقة.

(ليتني أحببت.. ليتني ما فرضت على نفسي العزلة العاطفية على الأقل لما كنت في هذا الوضع المتجمد الذي أنا فيه الآن.. فتاة أحبها وتحبني.. نتخاصم.. نتصالح.. نبكي.. نضحك.. نثور.. نهدأ.. نعيش الحياة الطبيعية.. أما الآن أنا أستطيع أن أتزوج بمن شئت.. لكني لا أريد أن أتزوج بسطوة مالي، إنما أريد أن أتزوج بفتاة أحبها وتحبني.. أحارب في سبيلها.. أهزم.. أقاوم.. حتى أفوز بها في النهاية.. أفوز بالأميرة بعد كفاح طويل هكذا أتمنى أن أتزوج.. أميرة أتزوجها بكفاحي الطويل لا جارية أشتريها بمالي الوفير.. أعرف أنه رأي غريب لو سمعه شاب في مثل سني بدون سنوات السفر لقال المثل المشهور.)

أحسَّ أن حافظة نقوده تضغط على قلبه فتعوق دقاته.. تحسسها.. همَّ أن يخرجها ويلقي بها في النهر.. سيطر عليه هذا الإحساس حتى يعود كما كان طالباً جامعياً مثل كل الطلاب الذين رآهم أمام الجامعة.. تراجع عن هذه الفكرة المجنونة عندما تذكر سنوات الغربة والسفر الطويل.

بدأ الليل يزحف بطيئاً.. الأضواء بدت باهتة خافتة.. الساعة الكسول تتثاءب، رأي فَرَحاً صاخباً على ضفة النيل الخالد.

(عندما أتزوج سأقيم فَرَحاً كبيرا مثل هذا.. فرحاً يليق بي. من حق من يملكون المال الاستمتاع بأموالهم.. لماذا كنت أغضب عندما كنت أرى مثل هذه الاحتفالات ؟!)

فتى وفتاة يجلسان جلسة رومانسية، راقبهما خلسة، أرهف السمع، عندما أحسا به سكتا.. سحب نفسه بعيداً عنهما في خجل شديد.. صرف نظره إلى صفحة النهر عشقه القديم.

(النهر هادئ حزين لم يكن هكذا، لقد كان شاباً ثائراً.. هل شاخ النهر ؟.. أين أمواجه المتلاطمة ؟!.. أين صوته العذب الجميل عندما يصطدم بأحجار الشاطئ.. لم يعد في الشاطئ أحجار إنما صارت سفناً.. الملاهي والعوامات جثمت على صدر النهر فكتمت أنفاسه.)

كبري عباس مزدحم بالعذارى وفرسان الحب.

(منظرهم جميل.. كيف تمنيت يوماً أن يهوي الكبري بهم بدلاً ممن هوى بهم عام ١٩٤٦ ؟!)

جزيرة الروضة .

(لقد كثرت بها المَحال وقلَّ المشترون.. سوبر ماركت.. شركة سياحة.. مطاعم أجنبية..)

وسط هذه المحال الفخمة وجد مطعماً شعبيّاً وعاملاً يصنع "طعمية "

(طعمية.. طعمية.. كانت طعامي المفضل.. أنَّى لي بقرص منها الآن.. ترى كم تكون الساعة الآن ؟.. هل أسأل أحد المارة ؟.. لا مستحيل.. أيكون معي ساعة ذهبية وأسأل واحداً من هؤلاء البؤساء ؟.. الملل يقتلني.. قبل السفر كانت الأعمال أكثر من الأوقات، وكان أصدقائي الذين تخرجوا قبلي يتحدثون عن كثرة الأوقات وانعدام الأعمال.. ليتني قابلت أحدهم الآن ليعلمني كيف أحرك عقارب الساعة للأمام .)

على كبري الروضة رأى كفيفاً يسير بمفرده ليس معه إلا عصاه مع كل خطوة يضرب سور الكبري بالعصا في إحدى المرات أصابت العصا شابا وهو يحلم هيمان مع حبيبته فولى هاربا مذعورا دون أن يلتفت ليرى صاحب العصا، أما الفتاة فقد تجمدت في مكانها.. أخذ

يتأمل الأعمى واثق الخطى حتى اصطدم بأحد المارة يجري وراء الأتوبيس، كادت نظارته الذهبية الثمينة تكسر .

قارَب الطريق على الانتهاء ومازال الليل في أوله (يبدو أن السير البطيء يبطئ بالوقت لأجرب وسيلة مواصلات سريعة.. أركب " تاكسي " لا بل " أتوبيس ")

وقف على محطة الأتوبيس، جاء الأتوبيس مزدحما

(لا.. لا.. هذا مزدحم جدا.. وهذا أيضا..)

بدأ يقلق أكثر .

(لابد أن أركب أول أتوبيس قادم مهما كان مزدحما)

جاء الأتوبيس انطلق نحوه بنشاط وعندما تلاحمت الأجساد وبدأ الصراع تكاسل وتراجع .

(ركوب الأتوبيس أصبح مستحيلا، لابد أن أشتري سيارة.. السيارة أصبحت ضرورة الآن.. الأتوبيس شيء مستحيل، المشي أرحم.. أجمل شيء في الكويت أنها غير مزدحمة.. المركبات العامة لا تجد من يركبها)

يئس من النظر إلى وجوه المارة بحثا عن صديق قديم أو أحد يعرفه، عاد إلى البيت يجر قدميه، السلم مظلم ؛ تعثر به أكثر من مرة ؛ كاد يسب البيت ومن يسكن فيه .

- أخرجي لي " بيجامة " من الحقائب .

- في أي حقيبة هي ؟

- نسيت

- ملابسك القديمة كما هي، هل أحضر لك " بيجامتك " القديمة ؟

- .....

- هذه هي.. نظيفة مثل الفل .

خلع ملابسه وألقى بها حاول أن يرتدي " بيجامته " القديمة فلم يستطع ؛ فقد ضاقت عليه، لبس " البنطلون " أما " الجاكت " فلم يستطع ارتداءه .

في عصبية شديدة أخذ يفتش عن " بيجامته " الحرير في الحقائب : بدل.. قمصان.. " بلوفرات ".. أجهزة كهربية.. كاميرا.. أخيرا وجد "البيجامة"، ارتدى " الجاكت " فقط، استلقى على السرير القديم فأحدثا صريرا شديدا وكاد يسقط به، حدق في طلاء السقف المتساقط .

(هذه سيارة.. لا . بل أتوبيس مزدحم.. وجه فتاة جميل أو مضرب تنس.. لا وجه فتاة متصل بعنق طويل بعض الشيء)

- لماذا لم تخلع البنطلون القديم ؟!

ما زالت عيناه معلقتان بالسقف

- البياض تساقط البركة فيك .

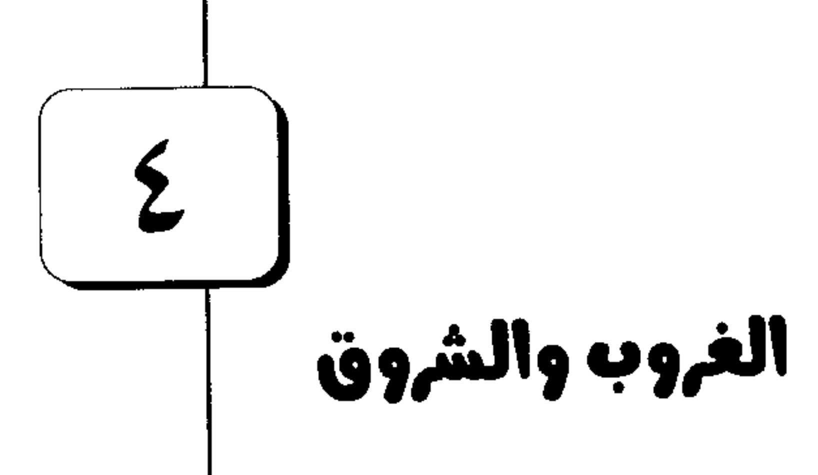
-.............

- نسيت أن أسألك هل أتيت في إجازة أم أن عقد عملك قد انتهى

-..............

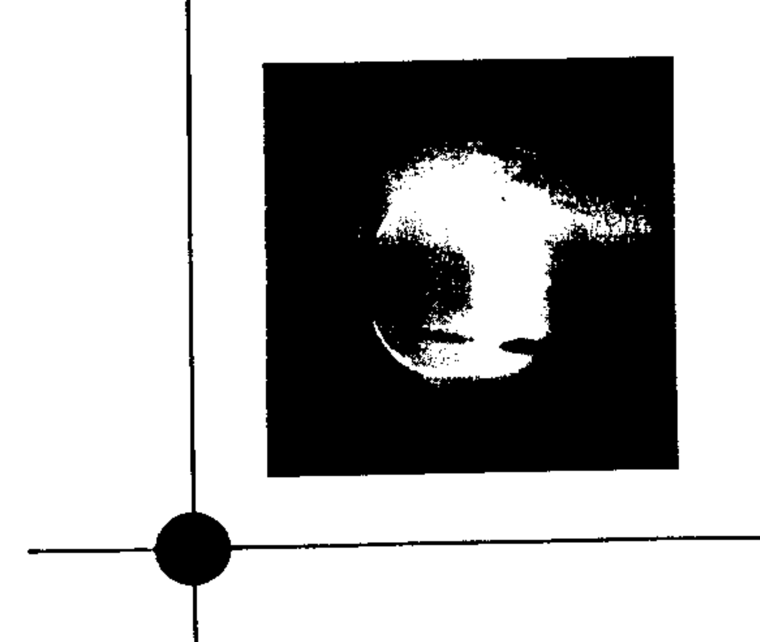
(وجه ضاحك لا بل حزين، نعم حزين.. عيون يسقط منها أشياء تشبه الدنانير..لا.. لا.. إنه ليس وجهاً على الإطلاق إنه ترس يقطر منه زيت..)





٤

الغروب والشروق



على قمم الجبال اخذ كل جندي مكانه في انتظار اوامر اخرى. كانت الشمس تنحدر نحو الغروب .

وقف حسن يتأمل السماء .

(يا له من منظر عجيب السماء ملونة بألوان الطيف الأزرق.. النيلي.. الأصفر.. البرتقالي.. الأحمر يا له من منظر بديع !)

خفق قلبه، وقفزت إلى ذهنه صورة منال متخطية كل الصعاب التي مر بها منذ ثلاث ليال، بل منذ تسعة شهور، ربما هو الذي استدعاها ليشم رائحة الياسمين، ويرى التفاح وقد استوى على عوده، ويسمع شقشقة العصافير .

(الغروب.. منال.. لا أدري لماذا يذكرني الغروب بها ؟ لأنها غربت دون أن أحس بها ؟.. منال.. أيام الصبا.. منال الشمس المشرقة، و ليالي السمر المقمرة)

الشمس بدأت تزحف ؛ لتختفي خلف جبل عال غليظ القسمات .

(لماذا هَجَرَتِ ؟ لِمَ منتني بـ...)

- كل جندي يحفر حفرة بقدر طوله.. نفذ الأمر بأقصى سرعة.

أفاق حسن على صوت القائد المدوي كقصف الرعد، بدأ يحفر بسرعة، و الرمال تتطاير كالدخان، ما زالت صورة الغروب الجميل عالقة بذهنه، ما زالت شفتاه تبتسمان، توقف ليلتقط أنفاسه، نظر إلى الشمس . كانت الشمس قد اختفت خلف سحابة من الغبار، وتعبق الهواء بالرمال، سدت الرمال حلقه، وحشت أنفه، اشتدت الريح، بدأ يسعل، ويبصق رملاً مبللاً، تناهى إلى سمعه صوت زميل له :

- كأن الواحد منا يحفر قبره .

أصابت العبارة قلبه، و استسلمت أعضاؤه للريح العاصف، وارتجف جسده من البرد القارس ؛ توقف عن الحفر .

- أمامكم ثلاث دقائق فقط لتنتهوا من الحفر .

عاود الحفر بيدين لا تقويان على الإمساك بهراوة الجاروف .

(القبر.. الموت.. مات أبي، وماتت معه الكلمة إلى الأبد.. اللعنة على الموت الذي خطف أعز من أحببت.. أبي.. أخي محمود.. الحادثة.. الدماء.. المستشفى.. الموت.. لن أسامح نفسي أني أغضبت أخي في يوم الحادثة التي راح ضحيتها .. كان طيب القلب، جسم رجل وبراءة طفل.. الموت. الموت يطاردني في كل مكان، هربت منه حيث ترقد أمي نصف ميتة، وها هو يلاحقني هنا أيضا) .

بدأت الدموع تنهمر من عينيه، تجففها الريح، تجف الدموع، وتبقى الرمال لترسم على الوجه الجميل تضاريس وعرة .

(لا أريد الموت.. لا أريد الموت.. أريد الحياة.. أريد أن أعيش من أجل أمي الطاهرة الحنون، أريد أن أعيش من أجل أخي صبري الذي ورث عن أبي حملا ثقيلا، أريد أن أعيش من أجل هدى زوجتي الطيبة، أريد أن أعيش من أجل هؤلاء، أريد أن أخفف عن عاتقهم بعض أحمالي، أريد أن أعيش)

توقف عن الحفر، وكاد الجاروف يسقط من يده، بل كاد هو أن يسقط من التعب، الظلام يشتد، البرد يشتد، و الأوامر ليس لها حد .

- إلى ضباط، وصف ضباط، وجنود سرية الحدود س ٢ أهرام، جاءتنا إشارة أن العدو نقض معاهدة السلام، وأغار على حدودنا، وهو في طريقه إلينا، فعلى كل فرد رفع درجة الاستعداد إلى الحالة القصوى، وعدم مغادرة المكان المحدد له، والاستعداد التام للاشتباك مع العدو .

ارتجف كل عضو فيه لم تكن رجفة خوف و لا برد، قبض على سلاحه بقوة، وقفزت إلى ذهنه كل المعلومات، و المهارات التي تعلمها، وتدرب عليها مرارا، ودبت فيه روح هيأت له أنهم لو تركوه لواجه العدو بمفرده، لأحرقهم ولم يغادر منهم أحدا .

(هذا أبسط شيء أقدمه لمن أحب، ما أهون الموت، وما أحبه لقلبي من أجل أمي الطاهرة الحنون، من أجل صبري عماد بيتنا، من أجل زوجتي الطيبة) .

لم يحس بالريح العاصف، و لم يخف من الظلام الحالك، وجعل كل تفكيره في كلام القائد، وفي العدو الذي يريد أن يقتل ما بقي ممن يحب، بدأ الصبح يلتهم الظلام .

- إلى ضباط، وصف ضباط، وجنود سرية الحدود س ٢ أهرام، الحمد لله انتهى مشروع الحرب بنجاح.. أشكركم على هذا الجهد المشرف الذي بذلتموه، وأرجو أن تواصلوا العطاء، وتظل أعينكم ساهرة على أمن الوطن، و المواطنين .

هدأت النفوس، واستراحت الأعصاب، و أغمض الجنود أعينهم لبعض الوقت ؛ ليريحوها من عناء السهر. وانصرف كل فرد إلى مبيته، ورفع عن كاهله الأحمال التي كانت تثقله. أما حسن فبدأ يلاحظ عملية ميلاد الشروق، يلاحظ الشمس وهي تهتك أستار الظلام، هذه الشمس التي تذكره بمنال تذكره بالحياة

٥







- (ماذا لو كانت فتاة لعوباً ؟.. ستكون بمفردها.. ماذا يمكن ان يحدث ؟.. لقد استأمنني على هذا السر..

كان يغرق، لم يجد غيري.. هل أكتب له ؟.. لقد أقسمت لـه أني سأرسل له فور تأكدي من صحة الأخبار التي وصلته.. صدَّق ما سمع، بدأ يغرق في بحر من الشكوك.. كاد يموت.. خلعت مشاغلي وغصت وراءه.. في الغربة كلنا إخوة.. تجمعنا هموم واحدة.. بدأ يلتقط أنفاسه، ويتقيأ ما في جوفه من هموم.. حان موعد سفري.. عودتي إلى أرض الوطن.. استحلفني أن أقوم عنه بهذه المهمة.. الحيرة التي كانت في عينيه انتزعتني من أحضان أهلي في اليوم الثاني.. لم أواجه في حياتي موقفاً مثل هذا.. الشيء الوحيد الذي يقلقني حقاً، كيف أعرف الحقيقة ؟ النساء عالم مجهول.. أخشى الاقتراب من أسواره.. سمعت كثيراً عنه.. عالم المكر والدهاء.. عالم الطهر والصفاء.. ملك انجلترا تخلى عن العرش من أجل امرأة، واعتزل الرهبان النساء.. عالم غريب غريب . لو لم أره يبكي كالأطفال ما ذهبت إليها) .

اقترب من بائع جرائد :

- أين رقم ٤٣ شارع عوني ؟

-هذا هو شارع عوني، ورقم ٤٣ في نهاية الشارع . من تُريد ؟

- شكراً .

(يبدو أنه يعرف العنوان جيداً ؛ أ يكون من المترددين عليه ؟ لقد حكي لي عامر أن أكثر من شخص رآها وهي برفقة شاب، وأقسموا له في خطاباتهم غير الموقعة على صدق هذا، وحكوا له عن أشياء قالتها ولا يعرفها سواهما) .

توقف عن السير وبدأ يفكر في العودة، ويرسل له مؤكداً صحة الأخبار التي وصلته، أو لا يرسل له على الإطلاق.. تذكر الموت الرابض في عينيه .

(لابد من تكملة المشاور، والتأكد من هذا الأمر بنفسي، لقد وعدته بهذا وأقسمت على هذا) .

وقف أمام البيت.. رفع بصره.. وصل إلى الدور الثالث.. الشبابيك موصدة . خشي ألا يجد أحداً . تحسس الخطاب الذي معه.. صعد السلم يقدم رجلاً ويؤخر أخرى.. وقف أمام الباب.. تفحصه بدقة.. دق قلبه بعنف.. احتشدت في رأسه كل الأحداث دفعة واحدة.. هزَّ رأسه، وأخذ نفساً عميقا كأنه يريد أن يستيقظ من كابوس مُقْبِض .

طرق الباب.. ازدادت دقات قلبه .

- (سأقول لها : إنني.. إنني من طرف عامر، وأرسل معي خطاباً.. هذه هي البداية.. يجب أن أتماسك، وأتصرف بحكمة فالموقف خطير) .

فتحت الباب.. تجمد عندما رآها بملابسها المثيرة .

- ماذا تريد حضرتك ؟

- أنا...

جف حلقه .

- أنا جمال صديق عامر .

تهللت أساريرها، وأينعت وجنتاها، وعلى شفتيها غنت أحلى ابتسامة .

- تفضل.. أهلاً وسهـ...

وفجأة كأنها تذكرت شيئاً ؛ فتكدر وجهها، وخرست الابتسامة الجميلة، وقالت تفضل بنبرة جافة . جلس.. قلب بصره في البيت.. سمع همسات مكتومة.. وأصوات أبواب تفتح وتغلق بسرعة.. فوجئ برجل في الخمسين من العمر يقول له :

- أهلاً يا بني، أهلاً وسهلاً .

أذهلته المفاجأة .

- (من هذا، هل هو... ؟ أم... ؟ وما تلك الأصوات ؟!)

- أهلاً يا بني كيف حال عامر ؟

- الحمد لله .

أحس بأن الرجل ليس لديه ما يقوله، وأن عليه أن يفتح الموضوع بعد أن يتأكد من شخصية هذا الرجل .

- أنت الأستاذ رجب ؟

- نعم.. نعم.. من قال لك ؟.. عامر.. الحياة صعبة.. الغربة أصعب.. الحياة كفاح.. سيعود بإذن الله.. يذكركم بكل خير... ونحن كذلك .

بعد أن بدلت ملابسها جاءت تحمل الشاي، وجلست على استحياء، بدأ يقتنع ببراءتها، توجه بالحديث إليها :

- لقد كلمني عامر عنك كثيراً .

أحس بأنفاسها المرتعشة، ودقات قلبها المضطربة، واصل كلامه:

- كان ينتظر منك خطاباً ليستريح قلبه .

- هو الذي... هو..

وانخرطت في البكاء، لم يخالجه شك ساعتها في طهرها .

- (مستحيل هذا الملاك الجميل يخون .)

احتقر نفسه أنه اتهمها يوماً .

نزل.. على ناصية الشارع رأى بائع الجرائد هـمَّ أن يعتـذر لـه، لكن نظراته الغريبة أثارت فيه الشك من جديد .

- (لا.. مستحيل.. لقد بكت أمامي.. لـيس هنـاك دخـان بـلا نار.. لكنها بريئة لقد أحسست بهذا.. أرأيت ماذا كانـت تلـبس ؟.. والأصوات التي سمعت ؟.. كان أبوها يجلس معهـا.. هـل تحققـت من شخصيته ؟..)

تلفت حوله ؛ أحس أن كل العيون تراقبه، والـشفاه تتهـامس.. عاد إلى بيته.. أخرج ورقة بيضاء، وأمـسك بـالقلم.. لا يـدري مـاذا يكتب ؟.. يكتب ويمحو.. يكتب ويمحو .

- (عالم النساء غريب.. غريب)

مزق الأوراق، وألق بالقلم، وقرر أن ينسى الموضوع .



٦

في المستشفى





كان يكره المستشفيات.. يكره رائحتها.. لا يطيق ان يرى إنسانا يتألم.. يبكي عندما يرى دموع طفل. فجأة سقط.. أغشي عليه..

حمل إلى المستشفى.. التشخيص ضربة شمس.. جسده الثائر سكن.. عيناه الثاقبتان خشعتا.. العقل المتوقد انطفأ.. الصوت المدوي سكت.. ما كان يخشاه قد حدث.. مستشفى.. أدوية.. صرخات مرضى.... جسد عليل.. ليل طويل.. لم يعد يستيقظ في السادسة صباحاً، وينام في الحادية عشرة ويلعب الشطرنج مع جاره العجوز الطيب.

الآن يستيقظ في أي وقت.. ينام في أي وقت.. مل النوم واليقظة.. مل السرير والحجرة.. مل الأصحاء والمرضى.. يريد أن يخلع ملابسه البيضاء ويهرب من هذا المكان لكن جسده لا يطاوعه.

في ذات صباح استيقظ على صوتها الحنون، ولمسات يدها الناعمة وبسمتها العذبة.. قاست له الحرارة.. ابتسمت وهزت رأسها.. أمسكت بمعصم يده هبت على جسده الملتهب نسمات بحر منعشة.. انتشى جسده، مازالت ممسكة بيده، وتنظر في ساعتها

الصغيرة الجميلة، ومازال نظره معلق بها، كأنها الحياة.. تركت يده برفق .

- أنت بخير.. هناك تحسن ملحوظ .

وبخطوات واثقة مضت . تابعها بنظراته العليلة، وأمانيه الكثيرة.

مرت أيام لا يدري عددها.. كل الذي يدريه أنه تعود عليها..

(ماذا أصنع لو استيقظت ولم أجدها) عندما يراها يتمنى (لو.. لو.. لكن هيهات هيهات فهي الطبيب وأنا المريض) يتصاغر في نفسه، ويجف نبع أمانيه ثم يعود يتمنى (آه لو كنت طبيباً مثلها.. لو كنت واثقاً من نفسي مثلها..)

وعلى طريقة المراهقين نادى عليها ليسمعها.. ليتأملها . نظرت إليه وأومأت برأسها، وبخطواتها الواثقة عادت .

- ماذا تريد يا باش مهندس سمير .

لا يدري ماذا يقول .

- أريد.. أنا متعب . جسدي ملتهب.. رأسي تتحطم .

وضعت يدها على جبهته، وككوب الليمون المثلج في يوم من أيام الصيف الحار كانت يدها .

- لا تقلق ستزول الحرارة بالتدريج.. اطمئن .

همت بالانصراف، استوقفها بلهفة .

- أرجوك.. انتظري

- ماذا تريد ؟

- أريد بصراحة.. أريد أن.. أن أتكلم معك بعض الوقت .

- ليس الآن.. عندي عمل كثير، عندما أفرغ منه...

- هذا وعد.. متى ستأتي ؟

- بعد ساعة .

- سأنتظرك.. لا تنسي الميعاد.. بعد ساعة .

لم يرفع نظره عنها وهي تغادر الحجرة .

(آهٍ لو رأتني وأنا صحيح معافى.. لو رأتني وأنا في موقع العمل.. لو رأت لوحاتي الهندسية.. لو رأت رسم فيلا الأستاذ صفوت.. آهٍ لو سمعت ثناء الناس.. لو... ستعود بعد ساعة كما وعدتني سأذكر لها كل هذا بطريقة غير مباشرة أثناء كلامي.. أشعر بالملل.. أحكي لها كل شيء حياتي .) .

بدأ يهندم ملابسه.. يرجل شعره.. يتعطر . وضع الكرسي الذي من المفترض أن تجلس عليه قريباً من سريره

راح يحلم باللقاء (رقيقة هي.. واثقة من نفسها.. أحس أنها أمل كبير.. أمل مستحيل.. كنت أتمنى أن أتزوج فتاة طيبة مثلها . فتاة ليست كشادية المغرورة، لا أدري كيف فكرت يوماً أن أتزوجها.. لكن الدكتورة " هناء " فتاة أخرى دكتورة بمعنى الكلمة.. لكن المشكلة أنها لا تحس بي، تعاملني كمريض وليس كـ... آهٍ لو رأتني في ظروف غير هذه)

جلست هناء في حجرتها، وسرحت بعقلها (عامان من العمل في هذه المستشفى.. رأيت فيها الكثير.. المريض، والمعافى.. لكن المهندس سمير إنسان آخر.. أخشى أن تتكرر اللعبة، وأمرض عندما يشفى المريض.. لكن واجبي كطبيبة أن أسمع لشكوى المرضى.. واجبك كطبيبة أم إحساسك كأنثى.. لا أدري ماذا أفعل ؟ لن أذهب كفى ما حدث.. يجب أن أعترف بالحقيقة.. أعترف بأني لست...)

فتحت الشباك ونظرت إلى حديقة المستشفى، لم يكن هناك جديد ومع ذلك فقد حاولت الانشغال بمتابعة المرضى وهم يتريضون، عندما وقعت عينها على الشجرة الكبيرة في أقصى الحديقة تذكرت خالد، أشاحت بوجهها بسرعة، وأغلقت الشباك بانفعال .

أخبرتها إحدى الممرضات بأن المهندس سمير الذي في الحجرة ١٥ يريدها . لم تستطع المقاومة.. ذهبت إليه.. قابلها بلهفة .

- لماذا تأخرت ؟

- كنت مشغولة .

- أ نسيتي موعدي ؟!

- أبداً ولكن...

- المهم أنك جئت .

- ماذا تريد ؟

- في الحقيقة أني أشعر بالملل وأريد أن أتكلم معك...

أثارت فيها كلمة " ملل " إحساساً غريباً، فقالت بنبرة حادة لم يسمعها من قبل .

- أنا أقول لك ماذا تريد.. تريد أن تحكي عن نفسك وعن عملك كمهندس ماهر، وعن مشاريعك الكثيرة التي قمت بها، وعن احترام الناس وتقديرهم لك، ثم شيئاً فشيئاً تبدأ في إظهار إعجابك بي وبمهارتي كطبيبة، ثم شيئاً فشيئاً تحدثني عن ابتسامتي الجميلة، وعيني السوداوين، وشعري الذي لا أدري ماذا يشبه، وعن.. وعن، وليس بعيداً أن تعدني مثل بعضهم بالخطوبة والزواج، يا باش مهندس سمير لقد سمعت هذا الكلام كثيراً، والنتيجة كما ترى .

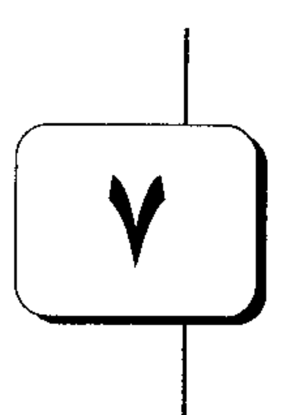
ورفعت يدها اليمنى وفردت يدها العارية من أي حُلي، وأكملت :

- أنا آسفة لأني جرحت مشاعرك، لكني تعبت.. تعبت جداً.. لم أعد أستطيع الاحتمال.. بإذنك .

انصرفت بخطى سريعة مضطربة، وأغلقت عليها حجرتها، وانخرطت في البكاء .

أما المهندس سمير فقد صدمته المفاجأة . وبعد يومين تعافى وخرج، وعاد يستيقظ في السادسة صباحاً وينام في الحادية عشر ويلعب الشطرنج مع جاره العجوز الطيب، ويفكر في أوقات فراغه في شادية .





الأماني



كانت الساعة تقترب من الخامسة
حينما كان عادل في طريقه الى
بيته.. كان سعيداً.. يجري
كالاطفال.. يقفز يلمس اوراق
الشجر.. يركل احجار الارض..
يغني.. يرقص

(يااه أخيراً خضعت.. أخيراً الأنف الشامخ نُكّس.. أخيراً الوجه المتنمر نام في حضني كقطة أليفة.. من كان يصدق أن " مها " تخضع في النهاية بهذا الشكل، وتسكن في صفحة من صفحات كراستي المزدحمة بالسكان.. يااه ما أجمل الانتصار !.. أريد أن أحضن كل الأشياء.. أُقبّل كل الناس) .

وصل إلى محطة القطار.. ومازالت الكلمات القليلة التي تلعثم بها لسان " مها " تهز أعطافه، ترقص قلبه.. مازالت نظراتها المنكسرة تثير فيه غرائز الرجولة . كعادته أخذ يتفحص الفتيات، وكلما وقعت عينه على فتاة حسناء سخر منها في نفسه (أجمل منك تتمنى لو تراني للحظة.. أجمل منك تتمنى لو تسمع مني كلمة) .

جاء القطار.. ركب.. جلس.. استعاد محاولاته الأولى معها.. يحاول أن يتذكر الأنف الشامخ، والوجه المتنمر، العينان...

وقف القطار.. كان من بين الركاب شاب خجول يبحث عن مكان شاغر.. وقف في زاوية يقرأ في أحد الكتب التي معه .

- يوجد مكان بجوار الأستاذ الذي يجلس هناك .

نظر سامح إلى حيث يشير الرجل فوجد مكاناً شاغراً بالفعل.. جلس في مواجهة عادل.. عاود القراءة .

لم يعرفه عادل في البداية بسبب نظارته الطبية ذات العدسات السميكة، ولكن برغم السنين الطويلة لا يمكن أن ينسى سامح زميل الطفولة والصبا (كنا نجلس في مقعد واحد.. وكان.. وكان..) ابتسم عادل (وكان يحب فتاة اسمها.. اسمها.. اسمها سحر أو سمر أو سهى... لا أتذكر المهم أنه كان يخجل أن يكلمها، وحدثني عنها وعن حبه لها وعرضت.. يومها كاد يموت من الفرحة، وحضنني بشدة وظن أني...) وهنا زادت ابتسامة عادل وكاد يقهقه، ولولا أنه في مركبة عامة لاستلقى على قفاه من الضحك (وظن أني سأكلمها بشأنه حقاً.. ساذج جداً سامح.. ترى ماذا صنعت به الأيام؟ أتراه مازال على خجله ؟ أم...) .

- سامح.. سامح .

حدّق سامح في وجه عادل للحظة ثم صاح :

- عـ.. عـ.. عادل.. كيف حالك ؟

وقام وحضنه وقبله بحرارة، وعادل يرد تحيته بفتور .

- كيف حالك يا.. يا عادل .

- الحمد لله.. كيف حالك أنت ؟

- أنا.. أنا بخير، من زمن بعيد لم أرك.. أين أنت الآن ؟

- أنا موجود .

- أقصد في أي كلية تخرجت ؟

نزلت كلمة " كلية " على عادل كالصاعقة، ألجمته المفاجأة .

-........

- أكيد في كلية الحقوق .

-.......

- إذن.. في كلية الشرطة، لقد كانت أمنيتك أن تدخل كلية الحقوق لتصبح وكيلاً للنيابة أو كلية الشرطة لتصبح ضابطاً في البوليس .

خشي عادل أن يكرر سامح عليه نفس السؤال فسارع في سؤاله:

- وفي أي كلية أنت ؟

- لقد دخلت كلية الإعلام.. فكما تعرف هي الكلية التي كنت أتمناها .

وقبل أن ينهي سامح كلامه عاجله عادل :

- وإلى أنت ذاهب الآن ؟

- ذاهب إلى الكلية .

- ألم تنه دراستك بعد ؟

- لا.. أنا ذاهب لاستكمل بعض الأوراق الخاصة بالسفر .

- هل ستسافر ؟.. إلى أين ؟

- الكلية رشحتني للسفر إلى إيطاليا كمنحة تفوق وا

وقبل أن ينهي كلامه عاجله عادل بسيل من الأسئلة لأنه يؤمن بأن الهجوم خير وسيلة للدفاع .

- وكيف حال الأهل والأصدقاء ؟

- بخير.. الحمد لله .

- وكيف...

- كفى أسئلة.. لم تخبرني حتى الآن في أي كلية تخرجت ؟

لقد حوصر عادل من جميع الجهات لا خيار أمامه إلا التسليم.. ليس أمامه إلا أن يطأطئ رأسه ويقول الحقيقة المرة .

- أنا حصلت على دبلوم تجارة .

أحس سامح بحرج عادل .

- (جاءت لحظة الثأر) قال بدهشة مصطنعة :

- معقول ؟!! دبلوم تجارة.. كيف حدث هذا ؟

- نصيب .

- أين طموحاتك، وأمانيك، لقد كنت أكثرنا حديثاً عن الأماني.

تحدث سامح كثيراً، ولم ينطق عادل بشيء فقد صرف نظره إلى الأرض، وأخذ يعبث بمفاتيحه وبزهر النرد المعلقة بها .

- (سامح تخرج من كلية الأعلام ! ومرشح للسفر لإيطاليا ! سامح أضحوكتي.. يااه.. كيف وصلتُ إلى ما أنا فيه ؟ أين أماني وطموحاتي.. كلية الحقوق أمنية عمري.. كيف نسيت كل هذا ؟!..

كيف أترك نفسي للمعلم بكري يخطط لي مستقبلي، ويعلمني كيف تكون الرجولة ؟!.. كيف يكون الأسطى حامد النقاش، والأسطى شلبي النجار، وسيد السمكري، والريس سعد أصدقائي ورفقائي ؟!!.. كيف أتدنى إلى هذا الحد ؟! لقد كنت أفضل من سامح).

انقبض قلبه، وأحس بدوار في رأسه.. خشي أن يلاحظ سامح شيئاً.. رسم بسمة باهتة على شفته.

أما سامح فعندما وجد عادل لا يشاطره الحديث دس وجهه في الكتاب، وبين الحين والآخر يختلس النظر إلى عادل.

- (عادل.. هو كما هو مهندم الثياب.. مُرَّجَل الشعر.. صبوح الوجه.. تفوح منه رائحة زكية.. دائماً مبتسم.. كانت الفتيات تتهافت عليه كما تتهافت الفراشات على النار، بل كما تتهافت الحسان على نجوم السينما.. ليتني أملك قدراً ضئيلاً من قدرته على اجتذاب الفتيات.. الفتاة الوحيدة التي أحببتها.. كم أكرهه.. مع ذلك.. أحس أنه أمير يمتطي صهوة جواد أبيض مزركش بالحلي والذهب يتبختر في بستان يانع، والأميرات يجلسن حول نافورة القصر الأبيض الضخم يتطلعن إليه في إعجاب وحب.)

- (أحس أني قزم صغير.. وأن سامح.. نظارته.. كتبه.. ملابسه.. كل ذلك تنطق بعبقريته).

-(ليت لي القدرة على ركوب الخيل، والتبختر بها.. ليت لي فتاة واحدة من فتياته الحسان.. فتاة واحدة تسمعني.. تشعر بي تبكي

لفراقي.. فتاة واحدة تسمع دقات قلبي التي يئست من أن تجد من يسمعها.. فتاة واحدة أكون أميرها وفارسها.. فتاة واحدة تحس ببركان الأشواق الذي يحرق صدري .)

- (كنت أتمنى أن أكون.. وكيل للنيابة يقف بالساعات يخطب لا تستعصي عليه قضية، ولا يقف أمامه خصم.. أو ضابط يبكي بين يديه اللصوص، وتجار المخدرات.. يبكي بين يديه المعلم بكري وأمثاله) .

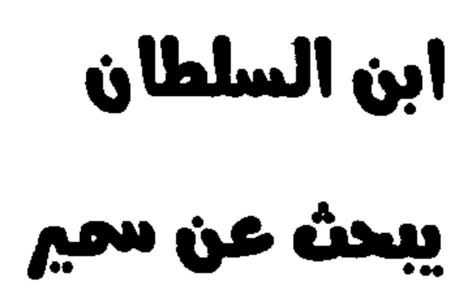
أخذ عادل ينظر إلى سامح الذي دفن وجهه في كتابه (ليت لي مثل هذه النظارة الطبية السميكة، والكتب الكثيرة، ورحلة إيطاليا).

توقف القطار قام عادل بتثاقل وهو مازال يحدق في سامح بانبهار بل بحسد تنبه سامح لوقوف عادل فنظر إليه، ولم يستطع أن ينطق بكلمة .

سار عادل وتابعه سامح بنظرات فاحصة ينظر إلى الأمير يمتطي صهوة حصان أبيض مزركش بالحلي والذهب يتبختر في بستان يانع والأميرات يتطلعن عليه بإعجاب وحب، أما عادل فكان يسير كنائم تدفعه الأجسام الهابطة وتصطدم به الأجساد الصاعدة وهو لا يقاوم الدفع ولا يتفادى الاصطدام، وبدفعة قوية سقط من القطار .



٨



ابن السلطان
يبحث عن سمير





- ماذا جرى في الدنيا ؟ كل أصدقاء الجامعة تشتتوا : واحد مهاجر، والآخر معار، والثالث يعمل ليل نهار ، فكرت فيك، وكنت خائفاً ألا أجدك، لكن الحمد لله، أخيراً وجدت صديقاً من أصدقاء الجامعة، لأقضي معه الليلة..

كيف حالك ؟ مالي أراك مهموما مكدر الوجه ؟!.. لم تكن هكذا .

- الحياة صعبة.. الحياة جحيم .

- كيف ؟ لم أسمعك تتحدث بهذه اللهجة المُرة من قبل .

- كنت صغيراً، لا أدرك معنى الحياة، لم أذق مرارتها، كنت طالباً لا أحمل هما لشيء، لي أحلام وآمال أن أصنع المحال، أحطم الصخر، أزلزل الجبال . وتخرجت، وتنفست البطالة، تنفست الدخان، سلَّم لي والدي دفة مركبنا الصغير؛ الصياد العجوز شاخ، لم يعد يقوى على الإمساك بالمجداف، اشتدت الريح لم يعد العلم هو السلاح، شهرته في كل الوجوه ؛ لم يعبأ به أحد ؛ مزقت الأوراق، وتقيأت ثمانية عشر عاماً، وشمرت عن ساعدي ؛ لم أستطع أن أزحزح الحجر الجاثم على صدر أبي، المركب الصغير تعبث بها الرياح، والأب مرض من الهم

وتمنى الموت ليرتاح، جريت.. جريت.. ولم أتقدم خطوة، تعبت.. تعبت.. ولم أكسب لقمة، أحلامي القديمة تخنقني، وتأوهات أبي تقتلني، لو كان الأمر بيدي لانتحرت، لو أستطيع ما ترددت .

- شاب في الخامس والعشرين من عمره يفكر في الانتحار !! أنت متشائم أكثر من اللازم، الحياة أكثر بهجة مما ترى، لماذا لم تجرب الأعمال الحرة، أو تعمل في حرفة ؟ .

- لم أترك شيئاً إلا وعملته، لم أر حكيماً إلا وسألته، لم أجد جبلاً إلا وصعدته ؛ شحب وجهي، وتشققت قدماي، وتراكمت الجراح على الجراح، وعدت في المساء وفي جيبي بضعة قروش لم يطلع عليها النهار.. يا ابن السلطان الرعية تموت، لا تجد القوت .

- لأول مرة أسمع هذا الكلام، لأول مرة أحس بهذا الاختناق . يا ناصر ابتسم للحياة تبتسم لك الحياة، كن جميلاً تر الوجود جميلا.. أجمل ما في الحياة النجاح بعد الكفاح.. أليس هذا كلامك ؟

- يا ابن السلطان هل شعرت بالجوع يوماً ؟ هل قمت بعد الأكل جوعاناً ؟ هل اشتهيت الفاكهة المعطونة، والحلوى التي يغطيها الذباب ؟ يا ابن السلطان هل رأيت أختك عارية تشتهي الثياب ؟ هل رأيت أمك تنام على التراب ؟

- ....

- لن تفهمني إذن .

- كيف أنا أحس بمشاكل الشباب، ولا تظن أني لا أحس بـك، ولكني أعتقد أنك تبالغ كثيراً، ولا أتصور الحياة كما تـصف.. أن مـا قلته ما هو إلا خيالات شاعر .

- خيالات شاعر !! يا ابن السلطان لقد هجرت الشعر، وقطعت أوتار العود، أصبحت أنام الليل كقتيـل، وتحـرق الـشمس وجهـي في النهار، لم أعد أسهر الليـل أنـاجي القمـر حتـى الـسحر، لم أعـد أرى شمس الصباح تبتسم، يا ابن السلطان الطيور في الصباح لا تغنـي بـل تنوح، والشمس في الغروب تدفن ورائحة الموت منها تفوح.

- يااااه ما أشد تشاؤمك ! وما أقبح تشبيهاتك ! كفى لا أطيـق السماع، أين هذا من أحلامك البهيجة، وآمالك العريضة ؟!

- أتدري بما أحلم الآن، أسافر كمعتمر، وهناك أتـزوج عجـوز غنية ؛ لأحصل على الجنسية .

- ماذا تقول ؟! ناصر هو الذي يقـول هـذا، نـاصر الـذي كـان كلامه عن الحب يعلمنا الحب !

- الحب.. الحب وهم كبير عشنا نحلـم بـه كـما يحلـم الظمـأى بالماء.. كما يحلم العرايا بالكساء.. الحب كلمة جوفاء.. الحب تـرف لا يملك ثمنه الفقراء .

- أتكفر بالحب يا شاعر الحب ؟!.. ماذا جرى لك ؟!.. كنت أتوقع أي شيء إلا كلامك الليلة .

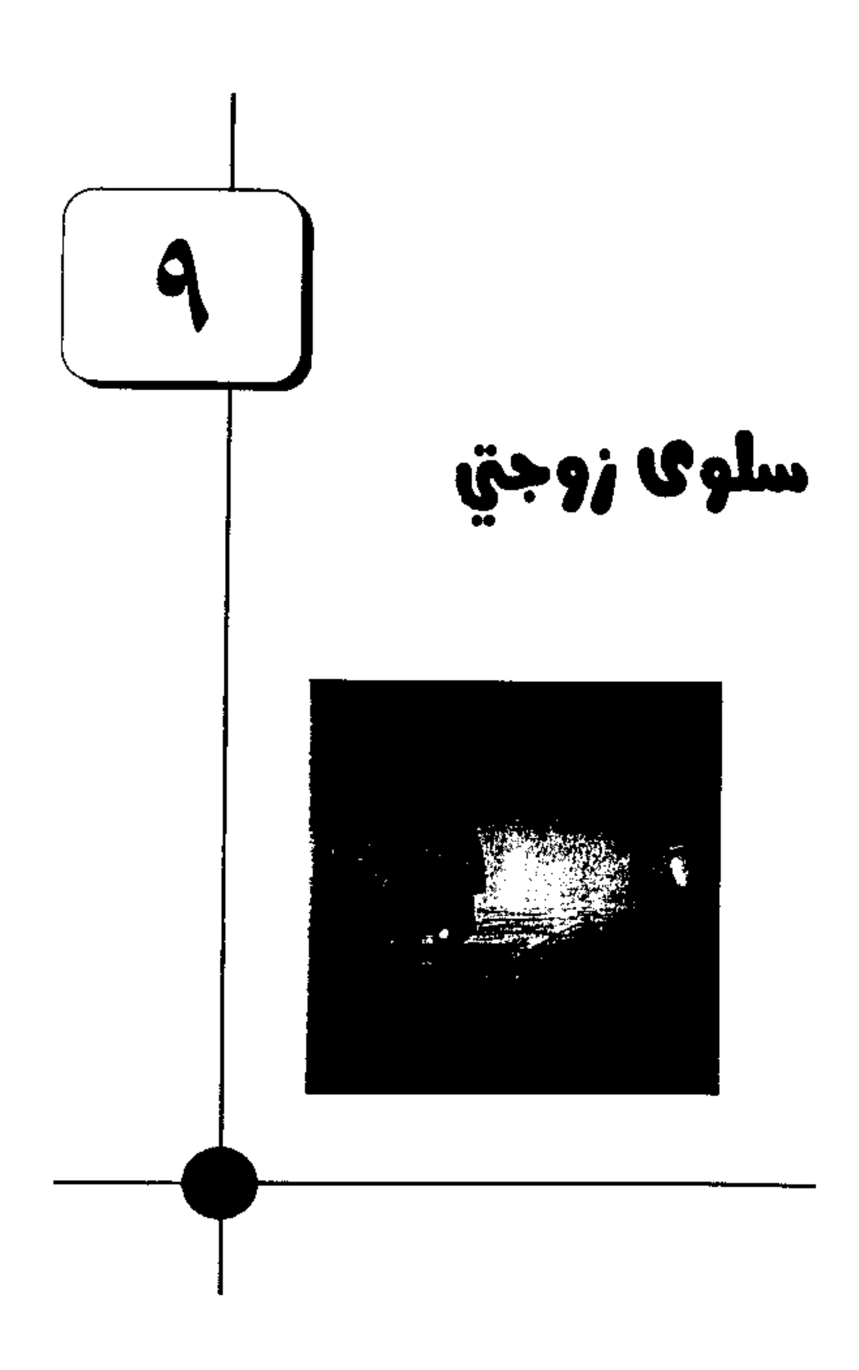
- يا ابن السلطان أنت في عالمك تفعل المعجزات، تحب.. تعشق.. تتزوج الأميرات.. يا ابن السلطان أنا أخشى السير فوق الكباري، والنظر من المرتفعات ؛ أن تنتابني لحظة ضعف فألقي بنفسي، ويقول أهلي أن الأمل مات .

- كفى.. كفى لا أطيق سماع كلامك.. أحس باضطراب في معدتي.. أريد أن أتقيأ . سامحك الله.. جئت لأسمع منك قصيدة جميلة أسهر الليل أغنيها أنا والحبيبة.. أزداد حبا للحياة فإذا بك.. من فضلك كفى كفى، أريد الخروج، ليتني ما جئت، ليتني ذهبت الليلة إلى السينما، أو إلى مدينة الملاهي .



٩

سلوى زوجتي





اليوم ماتت زوجته .
(هذا قضاء الله.. كل الذي يضايقني حقاً هو هذا الصراخ المتلاحق الذي يشبه العاصفة..

كل الناس تموت سبحان من له الدوام.. فلماذا هذا الصراخ وذلك العويل ؟.. ربما لأنهم يخشون الموت فيصرخون فيه ليخيفوه أو يستعطفوه.. لماذا لا أبكي مثلهم ؟ مع أني أقرب الناس للمتوفاة.. أ لأنني رجل متدين؟.. عدم بكائي يخجلني أمام الناس.. كأني كنت أتمنى موتها مع أني كنت أحبها)

في المساء أقيم سرادق كبير للعزاء.. حضر كل الأهل والأقارب والأصدقاء.. الوجوه عابسة.. العيون باكية .

صوت القارئ يهدر من مكبرات الصوت .

(أنا أحب القرآن.. أحب سماعه لكنني لا أحب أن يُتْلى على الموتى ولا يجوَّد هكذا بصوت مدوٍ)

انتهى القارئ.. تلقفت يده مئات الأيدي وسمعت أذناه كلمة واحدة رددتها مئات الشفاه.. كانت العيون تنظر إليه نظرات مبهمة.. حاول أن يرسم العبوس على وجهه ؛ ليزيل العجب من الوجوه .

(أنا حزين فعلاً لكن ليس لدرجة عبوس الوجه والبكاء والنحيب.. ترى ماذا يقول الناس عني ؟.. هل يقولون شجاع تحمَّل الصدمة الكبيرة بقوة وثبات ؟.. أم يقولون شيئاً آخر لا أدريه.. لكن الشيء الوحيد الذي أنا واثق منه أن كثيراً من العادات والتقاليد تفرض على الإنسان أن يصنع أشياء رغم أنفه ليرضي الناس) .

حاول البكاء حتى تظاهراً لم يستطع.. انفض الناس.. ألحَّ عليه أبوه وأخوته أن يبيت في بيت الأسرة لكنه رفض بشدة .

(أنا لا أستريح إلا في بيتي.. كم أنا متعب منذ الصباح والصراخ يدوي في أذني.. كان المشوار شاقاً ونحن نشيع الجنازة.. سرنا حوالي ثلاثة كيلو متر في الشمس اللافحة ونحن نغوص في التراب.. ما هذا التراب الكثير الذي يغطي الأرض من الذي جاء به إلى هنا ؟ فتح القبر.. صرخت النساء.. بكى الرجال.. أسالوا دموعي.. كم أنا متعب.. أحتاج إلى حمام ساخن.. عشاء لذيذ.. نوم عميق)

وصل إلى شقته ضغط على زر الجرس برفق كعادته عند العودة إلى البيت حتى لا يزعج سلوى حبيبته.. لم تفتح .

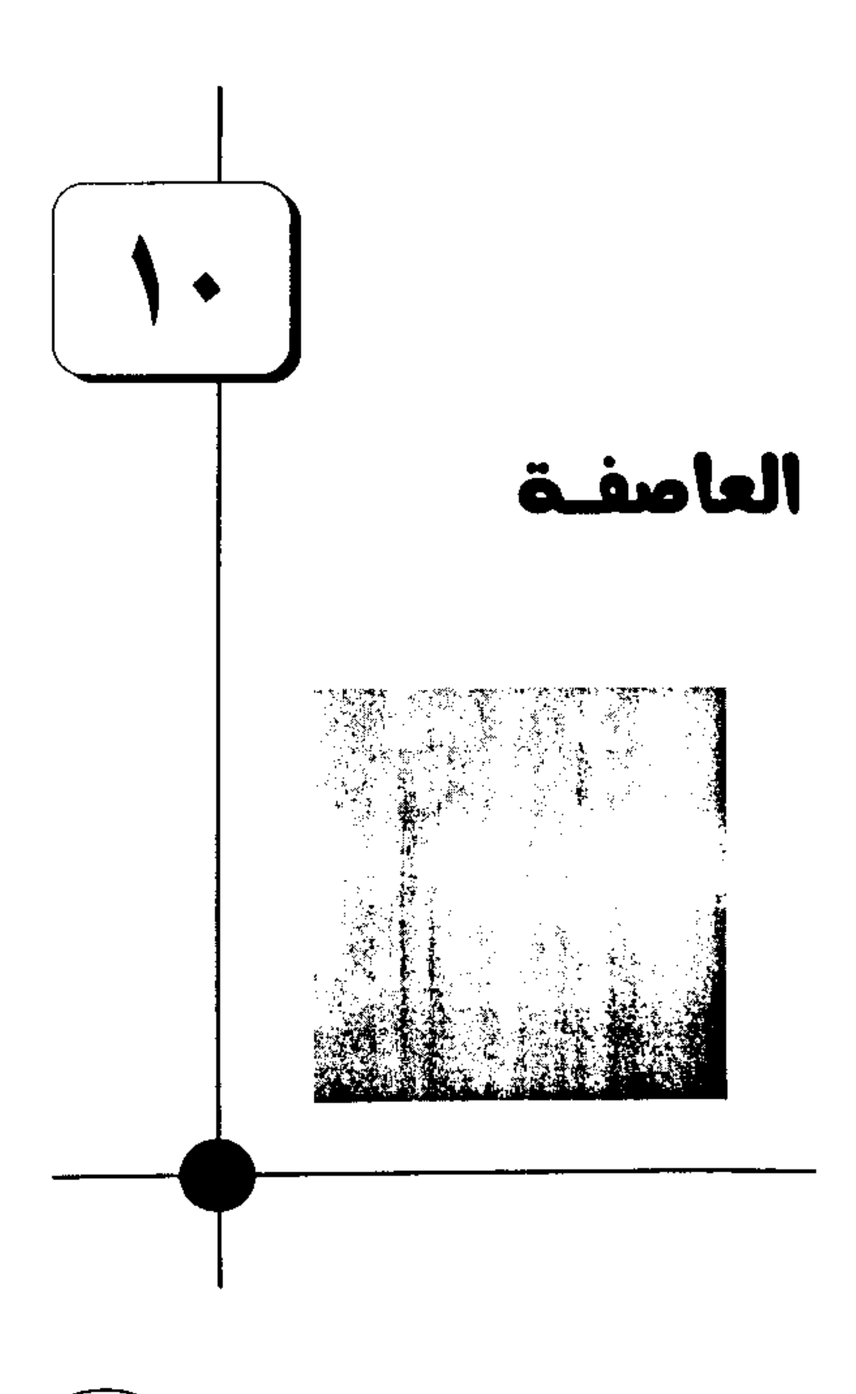
(يبدوا أنها نائمة أو في المطبخ)

فتح.. الشقة مظلمة لا حركة فيها.. لا روح فيها.. لا هواء فيها.. دق قلبه بعنف.. تحشرجت أنفاسه في حلقه.. عرق بارد يتصبب منه (أماتت سلوى حقا ؟!..)

فتح كل الأبـواب.. سـلوى غـير موجـودة.. النوافـذ مغلقـة.. والهواء خانق (سلوى كانـت تبعـث الحيـاة في هـذا المـوات تـضيء البيت.. تعبق الجو بأنفاسها الزكية)

ضاق صدره.. جف حلقه.. جر قدميه وبصعوبة وصل لحجـرة النوم.. الظلام حالك.. الأثاث يتسربل بالحزن القابض رمـى بنفـسه على السرير البارد.. راح في شبه غيبوبة الأحداث شريط سينها سريـع (سلوى حبي الأول والأخير.. الحمل السعيد.. سنـسميه " وسـاماً " ذكراً كـان أم أنثـى.. سـلوى ملاقـاة عـلى الأرض.. المستـشفى.. البقـاء لله في الجنـين.. البقـاء لله في الأم.. صراخ النـسـاء.. الجنـازة.. المقابر.. التراب.. كلمات العزاء.. تدفق الـدمع مـن عينيـه بركانـاً.. أخذ يصرخ.. يصرخ والدمع يتدفق ويتدفق.. لقد ماتت سلوى)





١٠

العاصفة

عاصفة شديدة محملة بالرمال تطمس
كـل شـيء.. النـاس المتبقيـة في
الشوارع تسرع الخطى حتى تصل الى
بيوتها.. تكور كل واحد على نفسه،
وضم اليه اطراف ثيابه .

الكل يعود لبيته أو إلى أي مكان يحتمي به . شخص واحـد كـان يغادر منزله إلى حيث لا يدري، لم يكن يرتـدي ملابـس ثقيلـة رغـم البرد الشديد والعاصفة الهوجاء، مكـث يتقلـب في فراشـه ؛ يحـاول النوم لا يـستطيع.. يحـاول مـرة ثانيـة لا يـستطيع.. يحـاول التفكـير فيعجز.. يحـاول صـنع أي شيء فـلا يقـدر.. نهض فجـأة وارتـدى ملابسه، وغادر البيت.. مر على عم سيد وهو يغلق دكانه .

- أستاذ أسامة..أستاذ أسامة.. أحد رجال الشرطة كـان يـسأل عنك هل...

لم يتوقف، ولم يلتفت كأنه لم يسمع شيئاً .

- مسكين الأستاذ أسامة كان شاباً مثل الوردة .

سار مع العاصفة في طريـق اعتـادت قـدماه الـسير فيـه، كانـت العاصفة تدفعه بقوة، وفجأة تذكر شيئاً ؛ فستدار بسرعة غريبة، وغير

اتجاهه، وسار في الاتجاه المعاكس.. كان يسير في نهر الشارع.. الكل كان يحتمي بالمباني .

لمحه أخوه خالد :

- أسامة.. أسامة.. إلى أين أنت ذاهب ؟!

وقف أسامة وطعن أخاه بنظرة حادة، ولوى عنقه، وأكمل المسير !

(لماذا أسامة يفعل هذا معي ؟!.. كنا صديقين.. أحكي له كل شيء.. يحكي لي.. منذ زواجه تغير حاله.. ينظر إليَّ نظرات غريبة لا أعرف لها معنى !) .

سرت في جسده قشعريرة دافئة.. اغرورقت عيناه بالدموع .

(خسارة.. خسارة يا أسامة.. خسارة يا أخي العزيز)

مشى.. مشى.. ابتعد عن بيته.. بدأ يعرق.. بلل العرق جسده النحيل رغم البرد الشديد، والعاصفة الهوجاء.. تعب من السير الطائش.. تعب من مقاومة العاصفة.. ذبح رئتيه الهواء البارد.. سد حلقه الغبار الخانق.. تتابعت أنفاسه.. اضطربت دقات قلبه.. أحس بالإعياء الشديد.. بحث عن مكان يستريح فيه.. المقاهي أوصدت أبوابها.. أحس أنه إذا لم يجلس الآن لمات على الفور .

جلس على الرصيف.. العربات تسير مسرعة.. تضيء مصابيحها مع أن الليل ما زال بعيداً.. رآه خفير عمارة تحت الإنشاء كان خارجاً لجمع بعض قطع الخشب المتناثرة مرتدياً ثياباً غليظة، وقد غطى رأسه برداء آخر فلا يرى منه سوى جفونه المجعدتين، وأنفه الأفطس .

- يا أستاذ.. يا أستاذ .

- هه.. ماذا ؟

- ماذا تصنع هنا في هذا الوقت ؟

- لا شيء.. أنا أنتظر صديقاً هنا .

رق الخفير لحاله ؛ دعاه إلى غرفته... لبَّى الدعوة على عجل ؛ فجسده بدأ يرجف.. تحول العرق إلى أشواك مسمومة.. بدأ يسعل سعالاً شديداً .

جلس أمام الموقد.. وضع الخفير كوزاً أسود مفحَّماً مربوطاً بسلك على هيئة مقبض فوق الجمر .

- أهلا يا أستاذ.. أهلاً، أهلاً.. الجو اليوم بارد جداً.. شهر أمشير هذا معروف، يوم حر، يوم برد .

- نعم، نعم .

- اسمح لي بأن أسألك.. مالك ؟ وجهك متعب، وصوتك حزين .

الثور الهائج في صدره يريد الفكاك.. كاد يقتله السكات.. الثور الهائج حطم قيوده بقرونه المدببة.. مزق الأحشاء.. حطم القفص الصدري.. عبر حلقه.. وقف على لسانه.. همّ أن يعبر السور الأبيض.. الأنياب الحادة قبضت عليه مزقته.. طحنته الضروس.. ازدرده مرة ثانية، وأتبعه برشفة شاي كبيرة .

صمته أسكت الخفير الذي تشاغل بالعبث بنار الموقد بعصا صغيرة، بينما صوب أسامة نظره إلى النار المتأججة ذات الألوان متدرجة الاحمرار، وفي قطع الخشب المتفحمة، وفي الرماد المتخلف عن عملية الاحتراق .

(لن أتكلم.. لن أفشي السر.. لن أنقض العهد مهما حدث.. من يوم الزفاف وأنا أحترق.. لا أستطيع الكلام.. كانت مطأطأة الرأس.. منهمرة الدموع.. توسلاتها تذيب الحجر.. صفحت عنها.. وعدتها.. ليتني ما وعدتها.. ليتني طلقتها ليلة الزفاف.. وجهها البريء أخرسني.. صوتها الحنون خدرني.. سكت.. لكن الشك)

- صديقك تأخر. ربما لا يستطيع الحضور بسبب العاصفة.. هل الموضوع الذي تحتاجه فيه مهم لدرجة أنك...؟

- كلا.. صديقي هذا يمر بمشكلة صعبة جداً.

- الدنيا كلها مشاكل، لا أحد بلا مشاكل.. وهذه المشكلة في العمل أم في البيت ؟

- في البيت.. اختلف مع زوجته.. طلقها.. أخذت منه كل شيء.. ابنه.. الشقة.. الأثاث.. كل شيء.. كل شيء.. أخيراً رفعت ضده قضية نفقة.. و...

- يا ساتر.. يا ساتر يا رب، إن كيدهن عظيم، لم يعد في الدنيا أمان، ماذا جرى للناس ؟!.. ربنا يصبره.

قال الخفير وقد تأثر بالموضوع :

- لكن ما سبب الطلاق ؟

هب أسامة واقفاً.. شكر الخفير ومشى.. صفعته العاصفة الباردة.. تبدد الدفء.. اختفى طعم الشاي.. احتار أي الطريق يسلك مع أم ضد التيار.. اختار الطريق الثاني.. الهم ثقيل.

(لم أكن أعرف أن اهتمامها المفاجئ بي كان شرَكاً.. الوجه الصبوح.. الصوت الدافئ.. العينان الصافيتان.. مستحيل أن تكذب.. سكت.. سكت.. لكن لم يفارقني الشك.. بدأت بطنها تكبر.. بدأ شكي يكبر.. وضعت حملها.. ثقل حملي.. لم يكن في الوليد شيء مني.. بحثت عمن يشبهه.. شككت في كل من حولي.. في لحظة

ضعف طلبت مني الطلاق.. أقنعتني به.. طلقتها بمحض إرادتي.. تنازلت لها عن كل شيء بمحض إرادتي حتى لا يشك في الأمر أحد.. لكن البغيّ خدعتني.. لو كشفت السر الآن ما صدقني أحد)

تلفت حوله.. خشي أن يكون قد سمعه أحد.. تعثر في حجر انكفأ على وجهه.. قام بسرعة.. مشى بسرعة.. بدأ يعرج.. تحامل على نفسه.. حمد الله أن أحداً لم يره.. الظلام يلف المكان.. الكل عاد إلى بيته.. بيته ضاع منه.. أراد أن يشم هواء نظيفاً.. أخذ طريقاً إلى البحر.. الأمواج متلاطمة.. ريح العاصف.. البحر مخيف.. أفزعه قارب قديم تلاطمه الأمواج.. تحجرت عيناه أمام صياد عجوز عاري الصدر يدير الشراع ليواجه العاصفة.. المركب تسير بسرعة.. السمك يقفز داخل الشبكة.. أفاق لم يجد المركب الصغير، ولا الصياد العجوز، لم ير سوى الأمواج المتلاطمة، والريح القاصف، أكان الصياد حلماً واستيقظ منه ؟.. أ كان وهماً وأفاق منه ؟.. أ كانت قصة قديمة قرأها وهو صغير ؟ .. لا يدري .

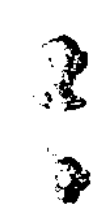
كل الذي يدريه أن صورة الصياد العجوز الذي واجه العاصفة بصدره العاري وقاربه القديم قد حضرت في ذاكرته ولم تبرح خياله أبداً .





١١

أريد أن أستريح



- كنت طفلاً كبقية الاطفال.. اجري.. العب.. احطم الاشياء.. عندما يهم احد بايذائي اجري واحتمي بامي.. انام في حضنها..

أشعر بالأمان.. أعود ألعب.. أجري.. تجري أمي ورائي؛ لتطعمني.. إذا تأخر الطعام ساعة أملأ الدنيا صياحاً، وضجيجاً.. كنت لا أحمل للدنيا هما.. بيتي كان حصن الأمان.. صدر أمي كان دافئاً مملوءاً بالحنان.

وفجأة ماتت أمي.. جف نبع الحنان.. مات كل شيء جميل في حياتي.. حُرِّم عليّ اللعب، والجري.. آهٍ لو حطمت شيئاً.. تحاشيت الشجار مع الأطفال؛ فحصني قد انهار، وامرأة شديدة القسوة دخلت الدار.. أجوع.. أجوع، ولا أستطيع الصراخ، ولا حتى الكلام.. أنتظر حتى تجود عليَّ صاحبة البيت الجديدة بما تشاء؛ آكله في صمت.. وبعد أن كنت أمير البيت، ولي العهد، أصبحت حيواناً أليفاً.. بيت أبي لم يصبح بيتي.. أحس أني فيه ضيف ثقيل.. لم أحتمل البقاء.. تركت البيت.. لم يتمسك بي أحد.. سكنت مع أخي.. هذا البيت أيضاً ليس بيتي.. زوجة أخي ليست أمي.. كالحيوان الأليف عشت في هذا البيت.. لا يستدل على جوعي إلا من نظرتي المنكسرة،

وازدراد ريقي عند الطعام.. تبدلت أحلامي لم أعد أحلم بالجامعة .. ولا بما يحلم به الشباب.. أصبح حلمي الوحيد أن يكون لي بيت أستريح فيه.. ألعب.. أجري.. أغني لا ينهرني أحد.. أصرخ طالباً الطعام في أي وقت أشاء .

- هذا ما جعلك، تترك المدرسة ؟

- نعم.. بدأت أعمل وأنا صغير ؛ فعندما يكون معي مال أشعر بالأمان.. لا أخشى الجوع، ولا الحرمان..

- لماذا لا تتزوج ؟

- أحلم باليوم الذي أتزوج فيه ويكون لي بيت.. بيت ملكي.. خاص بي وحدي.. أصنع فيه ما أشاء، وفتاة تكون كأمي تحمل عني همومي.. تحس بي.. أشعر معها بالأمان .

- ما يمنعك من الزواج ؟

- الفتاة الوحيدة التي أحببتها، والتي كانت تحس بي ؛ ربما لأن ظروفها كانت مشابهة لظروفي هي ابنة عمي.. وكما خُطِفت أمي دون إرادتي تزوجت هيام دون إرادتي.. تزوجت غيري وهي تحبني.. أرغمها أبوها على الزواج.. كلما رأيتها أقرأ في عينيها كلاماً مبهماً.. اعتذار.. عتاب.. رثاء.. اليوم أنجبت ابنها الأول ذهبت لزيارتها فإذا بها تهمس في أذني "سأسميه أحمد على اسمك" كدت أنسى نفسي..

أحضنها.. أقبلها.. تذكرت أن هذا البيت ليس بيتي.. خرجت لا أعرف إلى أين أذهب.. سرت.. سرت.. حتى قابلتني

- وماذا تنوي أن تفعل ؟

- أبحث عن بيت أستريح فيه، وحضن أرتمي فيه وأنام .





١٢

ألا ليت الشباب



جلس الأستاذ حنفي إلى مكتبه، وأمامه كومتان من الكراسات. نادى على زوجته. وطلب منها كوباً من الشاي .

- لا يوجد عندنا شاياً، أصنع لك...

- لا أريد شيئاً، سكّتي العيال، وأغلقي الباب خلفك .

قال هذا بانفعال شديد .

- ماذا بك ؟ ماذا بك يا ابن عمي ؟

- ليس هناك شيء، فقط أشعر ببعض تعب .

- سأرسل " منى " لتستلف بعض الشاي من أم كريمة .

- لا.. لا.. ليس هناك داع، من فضلك سكّتي العيال ؛ فأنا أمامي كراسات كثيرة .

خرجت زينب، وأغلقت خلفها الباب.. عاد إلى همه اليومي.. تصحيح الكراسات.. كلما صحح كراسة تحسر على العلم، والتعليم..

- (طالبة في الثانوية العامة لا تستطيع أن تكتب إلا صفحة واحدة في حب مصر، وارتكبت فيها عشرة أخطاء ما بين لغوية،

وإملائيـة، ونحويـة ! فـضلا عـن ركاكـة الأسـلوب، وسـطحية الأفكار.)

عندما فتح إحدى الكراسات وجد بها ورقـة مطويـة.. قـصيدة غزلية.. قرأ القصيدة.. بعد أن أتمها.. ابتسم ابتسامة عريضة.. شـبك يديه خلف رأسه، وأسند ظهره إلى الكرسي، وأغمض عينيه .

(أتذكر قصيدة الشعر التي كتبتها في دعاء ؟ بل في منى.. نعم في منى.. أذكر ذلك جيداً كأنه البارحة.. كان يوماً قاسياً، لكنه جميـل.. لم أكن شاعراً.. لم أكتب الـشعر قبلهـا.. عنـدما رأيتهـا تحـرك قلبـي الساكن، وتدفقت دمـائي المتجمـدة.. مـن زرقـة عينيهـا البـديعتين استمد قلمي مداده.. كتبت أول قصيدة.. تمنيت أن تقرأها.. تـسري فيها حرارة قلبي المتوهج.. تسمع دقاته التي أخرسها الخجـل.. لماذا لا تقرَأها عليها ؟.. أنا لا أستطيع.. لم أكلمها من قبل.. أرْسِلْهَا مـع أحد الأصدقاء.. دسها في كتبهـا خلـسة.. فكـرة جميلـة.. أدسـها في كتبها.. لماذا لم أفكـر في هـذا مـن قبـل ؟!.. لكـن كيـف تعـرف أني صاحب القصيدة.. من توقيعك.. ربما لا تعجبها، ويَفْتَـضِح الأمـر، وتلوك اسمي الأفواه، وأصبح حـديث الجامعـة.. الـصعلوك الـذي أحب بنت الملوك.. أرسل القصيدة أولا بلا توقيع فإن أُعجِبـت بهـا فصارحها بالحقيقة، وإن كانت الأخرى فلـم تخـسر شـيئاً.. ظللـت طول الليل أنسق، وأُجَمِّل في القصيـدة.. تحينت فرصة خلو المدرج من

الطلاب.. اقتربت من مكانها.. كنت أرجف.. عيناي معلقتان بالباب.. أخرجت القصيدة من جيبي بسرعة.. سيطر عليَّ شعور بأني أقوم بجريمة عقوبتها الإعدام.. شجعت نفسي فالفرصة سانحة، وربما لا يتاح لي مثلها بعد ذلك.. مددت يدي المرتعشة بالقصيدة.. قبل أن أدسها في كراسة محاضراتها دخل أحد الزملاء.. ارتبكت.. سقطت الورقة على الأرض.. لم أستطع التقاطها.. عينا الزميل كانتا مصوبتين نحوي.. شعرت أن كل شيء قد افتضح.. تركت القصيدة.. عدت بسرعة اختبئ في مكاني.. اتجه الزميل نحوي.. قلبي يكاد ينخلع.. تصبب جبيني عرقاً رغم برودة الجو.. كلما اقترب أحس أنه قد عرف كل شيء.

- صباح الخير.

- ....

- هل حضر الأستاذ المحاضرة الفائتة.

- الأستاذ.. الأستاذ.. لا أدري.

- ألم تكن موجوداً المحاضرة الفائتة؟

- لا.. لا.. لم أكن موجوداً.. أنا لم آتِ إلا الآن.. استيقظت متأخراً.. ولم أحضر إلا الآن.

- شكراً.

تركني ومشى.. نظراته توحي بأنه قد عرف الحكاية.. بعد أن تيقنت أنه خرج.. هممت بإحضار القصيدة الملقاة على الأرض، وإذا بالطلاب يدخلون. يأخذون أماكنهم استعداداً للمحاضرة الثانية.. تجمدت في مكاني.. تعلقت عيناي بالقصيدة.. ندمت على القيام بهذه الحماقة.. عندما رأيت "منى" تمنيت أن تلمحها.. لكنها داست عليها بقدمها.. على قلبي داست دون أن تدري . توقف قلبي عن الدق.. ونفدت أنفاسي.. الحمد لله رفعت قدمها عن القصيدة لمحت دعاء صديقتها القصيدة.. مدت يدها . التقطتها.. تحجرت عيناي.. فتحتها.. غرقت في عرقي.. قرأتها.. تلفتت حولها.. التقت عيناها بعيني.. بسرعة غضضت بصري.. ترى هل عرفت أني...؟.. رفعت عيني لأتأكد.. وجدت دعاء تراقبني بلحظها.. ترى ماذا تقول عني الآن ؟.. هل ستخبر منى بالقصيدة، وصاحبها ؟.. هل سيفتضح أمري بين الزملاء ؟.. لو حدث هذا فلن أعود إلى الكلية مرة ثانية.. تحشرجت الأنفاس في حلقي.. فكرت أن أغادر المدرج.. لو غادرته لألصقت الجريمة بك.. فلأبقَ إذن ؛ لأثبت لها أني لست صاحب هذه القصيدة. حاولت التشاغل بأي شيء.. لم أستطع.. نظرت لأرى ما وصلت إليه الأمور.. الحمد لله لقد صرفت دعاء نظرها عني.. فجأة رمقتني بنظرة خاطفة.. صرفت نظري بسرعة بطريقة لفتت انتباه جاري .

- هل هناك شيء ؟!

- لا.. لا.. لا شيء.

لقد تأكدت الآن أنها قد عرفت أني صاحب القصيدة.. وماذا في هذا ؟ فلتعرف ليس في القصيدة ما يشين.. القصيدة بلا توقيع.. الحمد الله أني لم أوقعها.. نظراتك، ارتباكك يؤكدان أنك صاحب القصيدة..ماذا يمكن أن تفعل ؟.. لا أعرف لكني خائف.. ماذا تصنع لو سألتك عن القصيدة ؟.. سأنفي بالطبع.. إنها قصيدتك التي سهرت في كتابتها الليالي.. هل تتنكر لقصيدتك التي كتبتها بكل أحاسيسك ؟.. أقول لها إنها قصيدتي، وضاعت مني، وأشكرها على أنها وجدتها.. فكرة رائعة، لكن ماذا لو لم تسألك ؟..هذا يكون أفضل.. لكن القصيدة لم تصل لمنى، وليس معك نسخة أخرى منها.. ما أسوأ حظي !.. من الأفضل بعد المحاضرة أذهب إلى دعاء وأقول لها إن ورقة قد سقطت مني في هذا المكان.. أو أتظاهر بالبحث في مكان قريب منها.. فإن سألتني عما أبحث أخبرها بأني أبحث عن ورقة قد سقطت مني في هذا المكان قبل المحاضرة.. فكرة رائعة ليتك تستطيع تنفيذها.. سأنفذها ليس أمامي حل سواها.

حاولت أن أفهم شيئاً من الأستاذ الذي دخل من نصف ساعة، ولكني فشلت.. بعد المحاضرة بدأ الطلاب يخرجون.. بدأت " دعاء " في النظر إليَّ.. عندما لاحظت " منى " ذلك نظرت إلى حيث

تنظر دعاء.. طأطأت رأسي.. بطرف عيني لمحت منى تحدث دعاء.. هل عرفت منى شيئاً عن القصيدة ؟.. ربما.. غادرت منى المدرج أما دعاء فما زالت جالسة تقلب في أوراقها.. قد حانت الفرصة هيَّا نفذ ما قررته.. لا وقت للتردد.. إني خائف.. لِمَ الخوف ؟.. اقتربت منها بخطى مهتزة.. تظاهرت بالبحث.. التفتت نحوي.. سألتني :

- عم تبحث ؟

- أبحث.. أبحث عن ورقة، ورقة صغيرة سقطت مني هنا .

قالت وهي تبتسم :

- وماذا في هذه الورقة ؟

- مكتوب فيها، مكتوب فيها، مكتو...

- هل نسيت ؟

- أبداً.. أبداً.. مكتوب فيها قصيدة .

- قصيدتك ؟

- ....

أحسست أنها عرفت كل شيء.. لم أستطع النطق.. تحاشيت النظر إليها .

- هل أنت شاعر ؟

- أنا.. أنا.. لا أدري.

- ماذا ؟!!

- أقصد.. نعم.. نعم.. أنا شاعر.

مدت يدها برفق وأخرجت القصيدة من بين أوراقها، ومدت يدها إليَّ بها، وهي تهمس برقة وعذوبة:

- هل هذه هي ؟

آثار قدم منى عليها.

- نعم هي.. شكراً.

مددت يدي لأخذها، فإذا بها تجذب يدها، وتقول ضاحكة:

- هل تسمح لي بنسخها ؟

ضحكتها المشرقة، وكلامها الرقيق سلبا عقلي، وروحي.. عصافير الكناريا تعزف لحن الربيع.. رائحة البنفسج تعبق المكان.

بدأت تنسخ القصيدة.. هذه أول فتاة تسمع دقات قلبي.. أول فتاة تروي ظمأ روحي.. أنا سعيد بهذا الخطأ.. أحس الآن أني لم أحب سواها.. نظرت إليَّ برقة وهي تشير إلى كلمة في القصيدة.. ظننت أنها لا تستطيع قراءتها.. اكتشفت أنها مفتاح الجنة.. كانت

الكلمة " دعاء روحي ".. لم أكد أنطق بالكلمة حتى احتضنتني عيناها.. لذَّع قلبي لهيب وجنتيها.. أنعشت روحي رعشت شفتيها.

أفقت على صوتها الحنون وهي تقول:

- بقلم الشاعر...

نظرت إليها، وإلى ما سطرته يداها الرقيقتان فوجدتها قد كتبت بقلم الشاعر، فأسرعت قائلاً:

- حنفي.. اسمي حنفي.

- وأنت؟

- دعاء.

خرج اسمها من شفتيها ليستقر في حنايا قلبي، كأنها نفثت به في روعي.. كل شيء أراه دعاء.. أسمعه دعاء.. أحسه دعاء.. دعاء.. دعاء.. دعاء.. دعاء.. ما أجمل الحب.. ما أجمل الحياة!

نام الكون، ولم أنم.. أمسكت بالقلم وسطرت قصيدة لدعاء.. سأفاجئها بها غداً.. ستفرح كثيراً بها.. هذه المرة لن تعييني الوسيلة.. إنها أقرب من أن أتخذ لها وسيلة.

ذهبت بالقصيدة، وأنا أحلم بدعاء، فوجئت بمنى تتجه نحوي، تثبت عينيها الزرقاوين في عيني.. " الموج الأزرق في عينيه يناديني

نحو الأعمق، وأنا ما عنـدي تجربـة في الحـب ولا عنـدي زورق "..
اقتربت أكثر.. " إني أتنفس تحت الماء إني أغرق.. أغـرق " سـألتني
هامسة :

- هل أنت حنفي ؟

المفاجأة عقلت لساني، أومأت برأسي .

- صاحب قصيدة دقات قلب ؟

لا أصدق ما أسمع، كيف عرفت، لابد أني أحلم، انتبهـت عـلى
صوتها :

- هل أنت صاحب... ؟

- نعم أنا .

- هل أستطيع أن أنسخها ؟

- بكل سرور .

أخذت أقلب في جيوبي.. وجدت ورقة فتحتها.. طويتها بسرعة
؛ فقد كانت قصيدة دعاء .

- هل هذه ؟

- لا.. لا.. إنها ليست هي .

- وماذا تكون هذه ؟ قصيدة أخرى ؟

- نعم.. يبدو أني نسيت القصيدة التي تريدينها .

- هل تسمح لي بقراءة هذه القصيدة ؟

- هذه.. لا.. لا .

- لماذا ؟

- لأنها.. لأنها، لأن القصيدة الأخرى أفضل .

- لا بأس.. أقرأ هذه اليوم إلى أن تأتي بالقصيدة الأخرى غداً.

مددت يدي بالقصيدة، وكأني أبوح بخيانتي لها .

لمحتني دعاء هرولت نحوي متهللة، صافحتني بحرارة شديدة كأنها تعرفني منذ بدأت الخليقة.. حدثتني عن إعجاب صديقاتها بالقصيدة، وسؤالهن عن اسم صاحبها.. ثم صمتت، واحمرت وجنتاها.. قالت بصوت رقيق حالم يقطر حباً...)

تنبه الأستاذ خنفي على صراخ.. عويل.. صياح.. خرج مذعوراً.. وجد أولاده يتشاجرون.. تلفت حوله.. عثرت عيناه على المكنسة.. أمسك بها وهوى بهراوتها عليهم حتى تهشمت.. حاولت زوجته زينب التدخل.. دفعها بيده.. غاصت في أحد الكراسي، ولم تستطع الحراك.. استمر يضرب.. يضرب، وهو يصرخ بأعلى صوته:

- ألا يكفي هـمٌّ المدرسة حتى يكـون هـمٌّ في البيـت أيـضاً.. مشاكلٌ هنا، ومصائب هناك.. لا يوجد يـوم واحـد للراحة.. هـدَّه التعب.. بُحَّ صوته.. دخل حجرته بعـدما تـرك أولاده بـين طـريح، وجريح.

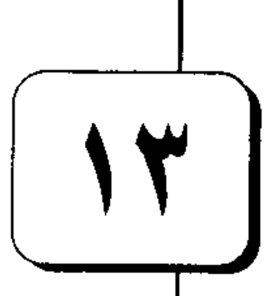
جلس على كرسيه منهوكاً.. وضـع وجهـه بـين يديـه.. ارتكـز بمرفقيه على المكتب.

بعدما هدأ رفع يديه عن عينيه.. وقعت عينـاه عـلى القـصيدة.. ثار.. انقض على القصيدة.. لم يترك كلمـة بجـوار الأخـرى.. ألقـى بكلمات الحب في سلة المهملات وهو يقول:

- كلام فارغ.. لعب عيال.

وأعطى صاحبة القصيدة صفراً دون أن يقرأ كلمـة واحـدة مـن موضوعها.





لا تواخذيني .. فأنا أحلم



اتصلت به تليفونياً وابدت إعجابها بقصصه.. صوتها الناعم الجميل انعش نفسه.. حرك الهواء الراكد حوله.. تواعدا امام البرج..

جلس بجانبها في سيارتها الفارهة.. ظلال الأشجار تكسو الأرض غلالة رمادية جميلة.. وبقع الضوء تنتشر كالنجوم على الأرض النظيفة.. هدوء مقمر.. السيارة تبدو كسفينة فضاء.. تكلمت كثيراً، وكان شارداً في هذا الحلم الساحر..

- أنا سعيدة بأن أراك اليوم.. لقد أعجبتني قصصك كثيراً.. تمنيت أن أراك.. أسئلة كثيرة حول قصصك أريد أن أسمع الإجابة عنها..

لاحظت أنه منذ ركب السيارة لم يتكلم. قالت في دهشة :

- مالك لا تتكلم.. ما يشغلك عني ؟.. أكيد قصة جديدة.

- لا.. فقط أحاول أن أستمتع بكلامك الرقيق، وبهذه المناظر الرائعة.

- أريد أن أسألك عن قصصك.. كيف تكتبها ؟ هل مرت بك كل أحداثها ؟

ثم قالت بدلال :

- هل عرفت كل بطلاتها ؟.. أسئلة كثيرة تحيرني حول عالم القصة.. كنت أتمنى أن أقابل كاتباً ليجيب عنها.. ذات يوم اتصلت بالأديب الشهير إحسان عبد القدوس لكني لم أجده.. وها أنا أسألك.. كيف تكتب قصصك ؟

- سؤال صعب.. لم أفكر فيه من قبل .

عادت تسأل وهي تغمز بعينها في غنج ودلال :

- هل كنت على علاقة بكل من كتبت عن هن ؟.. هل أحببت بسمة.. منى.. هناء.. دعاء.. وغيرهن ؟ .

قال وقد احمرت وجنتاه :

- لا بالطبع .

- إذن كيف تكتب عنهن هذا الكلام الساحر الذي لا يقوله إلا عاشق؟

أسند رأسه إلى الكرسي.. سكت حتى يستمتع بهذا الحلم الجميل.. لا يصدق نفسه.. هذا أكبر من أحلامه.. بجواره أميرة حسناء.. ويركب سفينة فضاء.. لا ينقص هذا الحلم إلا الموسيقا والغناء.. طلب منها أن تسمعه شيئاً لأم كلثوم.. فكانت ألف ليلة وليلة.. أحس أنه هارون الرشيد.. قال هامساً :

- آه لو تعلمين مقدار سعادتي الآن.. آه لو تسمعين دقات قلبي.. كانت أمنيتي أن أقابلك.. أسمعك.. تعجبين بقصصي..

- هل كنت تعرفني من قبل ؟!.. كيف ؟!!

- كنت أحلم أن أقابل أميرة مثلك تسكن في قصر كبير.. تعيش بلا مشاكل.. بلا هموم.. كالزهرة البيضاء في بستان قصر محظور على الرعاع الاقتراب منه.. كشعاع قمر ساقط على بحيرة من الزئبق .

- كلامك جميل.. أنا كل هذا !

- كانت أحلم بقصر مثل هذه القصور.. أجلس على كرسي وثير وسط الحديقة الغناء.. أشير لأجمل الأميرات فتجلس تحت قدمي.. ترجوني في دلال أن أسمعها آخر ما كتبت.. تنصت كالقمر.. أنتهي من الكلام تضمني تقبلني وتسمعني أحلى الكلام.

- حلمك غريب..في يوم من الأيام ستملك قصراً..أنت أديب شهير.

- أنى لي بثمن ستائر شرفاته ؟.. بزيت قناديله ؟.. حتى لو امتلكته فلن أكون أميراً.. أبي لم ينحدر من سلالة الملوك.. لم يركب خيلاً يتنزه بها وسط الغابات والحدائق.. لم يأكل مما يشتهي.. لم ينم على سرير يتأرجح على بحيرة من الزئبق .

- لك الفخر أن أباك الفقير علمك ورباك حتى صرت...

قاطعها قائلاً :

- كلامك هذا عشت أردده طول حياتي.. أنا الآن أحلم.. أتكلم في غفلة من عقلي.. أجدادي نَمْلٌ حصيلة ما فعلوه كومة من

الرمال في صحراء مظلمة لم يرها أحد.. لم يعبأ بهم أحد.. نعم النمل نشيط.. النمل مقتصد.. النمل علم الإنسان كذا وكذا.. لكن النمل تحت الأقدام يموت.. ليس للنمل عند اتخاذ القرار صوت.. النمل نشيط لكنه قليل الحيلة.. النمل يعمل بجد لكن كسر الخبز المتبقية من الموائد ضنينة .

- كلامك عجيب، لم أسمعه من قبل.. لم أتوقع سماعة خاصة منك أنت الإنسان المثقف الذي تنطق كل كتاباته بالكفاح والصمود والثقة بالنفس .

- يا أميرتي أنا أحلم لا تؤاخذيني.. أهذي بالحقيقة التي عشت أجمِّلها.. أزيفها .

- دعك من هذا الكلام السخيف.. أجبني عن سؤالي.. هل أحببت كل بطلات قصصك ؟.. أقصد هل عرفتهن جميعاً ؟

- سأصرح لك بسر لم أعترف به لأحد من قبل.. سر حير كل من حولي.. نعم أحببت مرة واحدة.. أحببت فتاة اسمها حنان.. كنا زملاء دراسة.. أحببتها كحب الغريق لجزع شجرة.. ومن لفحته الشمس إلى ظلها.. لم اكن أتصور أني سأعيش بعدها.. وبعد أن فنيت فيها تركتني فجأة.. ضنت عليَّ حتى بتفسير هذا الهجر.. تألمت.. تألمت حقاً.. تجرعت كئوس الصبر حتى الثمالة.. أسقطها من وعيي.. أسقطها حتى من مذكراتي التي لن يقرأها أحد غيري.. ورغم ذلك مازلت أحلم بها .

- هذا ما خمنته.. إن الذي يكتب بهذه الرقة وهذا الحب لا بد أنه قد ذاق الحب .

وقفت السيارة أمام فيلا كبيرة.. نزلت وطلبت منه النزول.. سار في الحديقة الخضراء الموشاة بالأزهار الحمراء.. الهواء مندى بعطر لا يعرف كنهه..

- مالك تنظر للفيلا هكذا ؟!

-..........

أجلسته في حجرة الاستقبال.. طلب أن يجلس في الشرفة المطلة على الحديقة.. أخذ يمتدح جمال الحديقة .

- ألم تذهب إلى الريف قط ؟.. ألم تر ما هو أجمل من هذا هناك؟

- يا سيدتي الطبيعة في الريف بقرة قطعت ضروعها.. هزلها قلة المرعى.. يا سيدتي الفلاحون يعيشون على الكفاف.. يعيشون السنوات العجاف .

- والمحاصيل التي يزرعونها .

- المحاصيل التي يزرعونها يوردونها للدولة نظير بعض السماد.. وتشتريها من الخارج بأكباد العباد .

- أسمع منك اليوم كلاماً عجيباً.. كلمتني عن الأدباء الذين يحلمون بحياة الأغنياء.. عن الفلاحين الذين يعيشون حياة الشقاء.. مع إنني أعتقد أنهم يعيشون حياة هنيئة وديعة .

دق جرس الباب.. تدفقت مجموعة من الفتيات والشباب.. يهللون ويصيحون.. فوجئ بهم كأنهم خرجوا من باطن الأرض.. استيقظ من حلمه.. سألوها عنه.. لم يعرفه أحد.. حاولت أن تصنع منه شيئاً مقبولاً بالنسبة لهم.. كانوا على عجل فهم ذاهبون إلى حفل ساهر.. دعوه دعوة غير صادقة.. أعتذر بكثرة مشاغله.. خرج متصاغراً.. رآه البواب :

- من أنت ؟

- أنا كنت آتياً معها .

- مع من ؟

- مع صاحبة القصر .

- القصر !!

- أقصد الفيلا .

أصبح كنملة غير أنه لا يقوى على حمل نفسه.. دس نفسه في الأتوبيس وعاد إلى بيته .

أمسك بالقلم وكتب قصة تحكي عن فتاة غنية أحبت شاباً فقيراً بجنون لكنه فضل عليها فتاة فقيرة مثله !





القديس والحب





صدمه المشهد.. خارت قواه.. حاول ان يتماسك بشيء لم يجد غير رفوف الكتب.. انهارت عليه الكتب الثقيلة.. لم تفلح في إنقاذه..

توقفت الساعة القديمة.. لا أحد يعرف كم مر من الزمان حتى أفاق الشاب من الصدمة.. أسرع بحمله بمساعدة الفتاة الجميلة إلى كرسيه الخاص المواجه للمكتبة الكبيرة.. أفاق من إغمائه.. نظر إليهما نظرة عميقة.. لم يتكلم.. لم يطيقا نظرته القاتلة وصمته المخيف.. عندما همّا بالكلام رفع يده في وجهيهما.. تحجرت الشفاه المرتعشة.. جَزَّ على أنيابه وقال بصوت عميق هادئ كأنه ينحت الكلام من صخرة أبي الهول العتيقة .

- لا تعتذرا فلن أقبل منكما اعتذاراً .

بدأت يداه في النزول ببطء ثقيل مخيف.. بدأ وجهاهما يتضحان شيئاً فشيئاً من خلال أصابعه.. كلماته ترددها كل الجدران كأننا في معبد قديم :

- قد كنت واهماً حينما اقتنعت يوماً أنه مازال في الدنيا شيء من التقدير، والوفاء .

مع آخر كلمتين هوى بيده على سور المقعد محدثاً صوتاً غاضباً حزيناً.. أخذ نفساً عميقاً نَفَسَه في بطء ثقيل .

قال الشاب بتوسل : لا أدري ماذا أقول ؟.. لكنني أقسم لك أني.. أنا أستحق أي عقاب.. أرجوك عاقبني.. أقتلني.. لكن لا تنظر إليَّ هكذا .

- تلميذي.. تلميذي الذي أعطيته كل شيء.. علمته كل شيء.

- أنا لا أجحد فضلك.. أقسم ما خنت عهدك.. إن ما حدث ليس خيانة..أقصد ليس.. ليس .

ودفن الشاب وجهه بين يديه وطفق يبكي .

أحست أن دورها قد حان .

- والله ما حدث شيء.. لم يحدث شيء على الإطلاق.. فقط لحظة ضعف عادية.. لحظة ضعف تحدث كل يوم.. تحدث لكل الناس.. أنا لا أبرر خطئ...

- لماذا فعلتِ هذا ؟!

- أنا.. أنا...

- هل أكرهتك على الحياة معي.. أنتِ التي اخترت...

- أنا لست نادمة.. أنا فخورة بك...

- لماذا إذن تفعلين هذا ؟.. هل سألتِ عن شيء ولم أجبكِ ؟.. هل وعدتك بشيء ولم أحققه ؟.. هل أخطأت في شيء ؟.. أقسم لو ذكرتني بشيء من ذلك لصفحت عنك.. أقسم وأنت تعرفين قسمي.. أم تراك نسيته أيضاً ؟

- لم أنس شيئاً.. لم أنس شيئاً أبداً.. أنت تعلم أنك بالنسبة لي كل شيء...

- أنا لم أعد أعلم أي شيء .

- يا ربي ماذا أقول ؟.. كيف أقنعك ؟.. أنت قديس، لكنني لست راهبة.. أنت في محرابك تقرأ.. تؤلف.. تتعبد.. وأنا أسمع.. أرى.. أحس.. أنت حبيس عالم لا يخطئ أبدا.. أنا أعيش عالماً مخطئاً أبداً .

- لماذا اخترتني إذن ؟

- أنا اخترتك لتطهرني فأنا...

- أنتِ أخطأت.. لا حجة لك فيها فعلت.. إن كان لك حجة اذكريها.. أنا أعطيك الأمان .

- الأمر ليس أمر حجة وبرهان..الأمر أمر ضغوط.. ضعف.. شيطان.. أنا لا أبرئ نفسي من الخطأ، لكني بشر .

- هو شاب، وأنا عجوز.. في ميزان النساء هو يفوز...

- أرجوك لا تقارن نفسك بـه.. أنـت البحـر الزاخـر، وهـو المستنقع الآسن.. أنـت الـذي طهرتنـي، وهـو الـذي حـاول أن يدنسني...

وهنا ثار الشاب. ورفع يده وصفع الفتاة على وجهها بكل قوته، وقال وهو يركع على قدميه، ويهم بتقبيل يد العجوز .

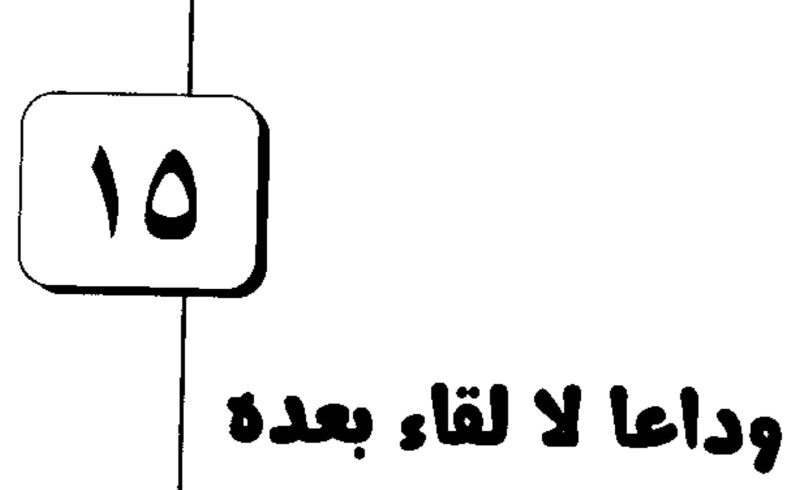
- أنا مخطئ سيدي.. اصفح عني بربك.. امنحني فرصة ثانية.. أقسم لك...

- لا تقسم فقد صفحت عنك.. هذي كتبي كلها لك، لكن لا تسلني عن شيء فيها .

واستدار ناحية الفتاة التي كانت ما تزال تبكي وقال :

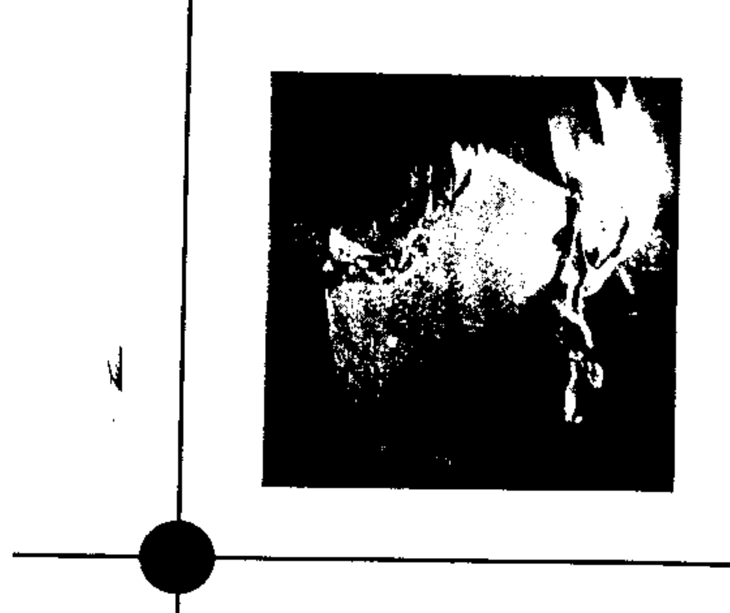
- أما أنت فكفكفي دمعك فلن يطهرك البكاء، ولـن تعـودي بعد اليوم غير كل النساء .





١٥

وداعا لا لقاء بعده





الحت عليه بخطاباتها لدرجة لم يستطع عنها السكات امسك بالقلم وعلى ورقة نظيفة شرع في الكتابة لكن ماذا يكتب ؟

(عزيزتي، أم صديقتي، أم...)

خطاباتها الرومانسية حركت فيه رومانسيته المخنوقة.. خفق قلبه الميت.. كاد يكتب قصيدة غزلية مع أنه ليس شاعراً.. خطفته الحياة.. بعد أسبوع كامل عاد.. الرومانسية الوليدة وئدت.. أمسك القلم.. يستحث الكلام.. يدفعه دفعاً .

" عزيزتي أحلام :

أعتذر عن تأخر الرد.. لن تصدقيني إذا قلت لك أني مشغول لدرجة لا تسمح لي بالكتابة لك رغم حرصي الشديد على ذلك.. أعلم أنك أن تصدقيني.. ستقولين إن الأدباء يختلقون الأعذار للهروب من المعجبين.. لن تصدقيني إذا قلت لك أنك أول المعجبين الذين كتبوا إليَّ.. لا أخفي عليك أني سعدت بهذه الرسائل أيما سعادة ؛ فقد أعدتني إلى الوراء عشر سنوات على الأقل .

عزيزتي أحلام :

تسأليني لماذا لم أعد أكتب ؟.. لماذا جف مداد قلمي ؟.. سؤالك بريء كقلبك الأخضر.. لكن الإجابة أليمة كقلبي المتحجر.

الأدب يا عزيزتي الصغيرة ليس حرفة يستطيع الإنسان أن يمارسها في أي وقت.. الأدب أمير يحتاج إلى أن يأكل حتى الشبع، وأن ينام حتى الضحى، وإلى فراغ كبير لا يفسده عمل.

وأنا يا عزيزتي.. طعامي يكفيني لأحيا فقط لا لأكتب !.. أستيقظ من النوم على صوت جرس نحاسي عالي الرنين في الفجر.. لا أخلو بنفسي إلا لأنام.. أمير الأدب ملَّ حياتي.. هجرني.

يا عزيزتي.. الأدب أمير، وأنا فقير.. فقير.. أعتقد أن قلبك الصغير الرقيق لا يعرف ماذا تعني كلمة فقير ؟

يا عزيزتي كلمة فقير تعني أني إذا لم أستيقظ عند الفجر، وأعمل طول النهار، وجزءاً من الليل فلن أجد ما آكله.. كلمة فقير تعني أني إذا لم أتحمل حماقات صاحب العمل، وسخافات العملاء ؛ فسيتعرى جسدي في الشتاء.. كلمة فقير يا عزيزتي تعني باختصار أن أبذل أقصى ما أستطيع ؛ لأحصل على أقل القليل.

وتسأليني لماذا لم أعد أكتب قصصاً ؟

يا عزيزتي أنا لم أعد أكتب قصصاً فحسب بل لم أعد أفكر !.. لا أملك الآن إلا أن أتألم.. أتألم، ولا أستطيع التأوه.

أنا آسف عزيزتي ؛ لأني أخبرتك بالحقيقة المؤلمة.. لكن ليس عندي غيرها، ولا أستطيع حتى أن أألف غيرها.. أنا مثلك أتمنى لو امتلأ قلمي بمداد الحب.. لو ارتاح من هموم القلب.. لو زارني أمير الأدب.. لو آكل حتى الشبع.. لو أستيقظ دون أن يوقظني شيء.. لو أحتسي الشاي في الشرفة المطلة على النهر.. لو ارتسمت الابتسامة على الثغر.. أقسم لك لو حدث شيئاً من هذا لقرأت في اليوم التالي أحلى قصصي .

عزيزتي الصغيرة.. إن انشغالي بالرد عن سؤالك أنساني شكرك على كلماتك الرقيقة التي لا أجد ما أرد عليها به إلا أن أدعو الله ألا تستيقظي من حلمك الوردي الجميل.. حلم العذارى الشفاف النقي، وأن تظل حياتك رومانسية، وألا يوقظك رنين الجرس النحاسي عند الفجر.. وأن تظل سنابلك خضراء.. وبقراتك سمان، وأن تجدي وقتا تقرئين قصصاً جميلة لشاب رومانسي لم تطحنه الحياة، أو لرجل يمتلك ثمن القلم، والورق، والمداد .

والسلام ختام .

ملحوظة :

أرجو ألا ترسلي رسائل بعد ذلك حتى لا تفسدي عليَّ حياتي، وتذكريني بأشياء ماتت يؤلمني بعثها .

يا أرق الناس.. يا أحب الناس وداعا لا لقاء بعده .



١٦

مذكراتي مزورة



اخذ بعض كتبه.. مذياعه الصغير..
صعد درجات السلم الى سطح المنزل..
جلس في ظل عمارة شاقة الارتفاع..
كانت الشمس اخذة في الصعود..
الطقس طقس القاهرة في شهر اغسطس .

(هذا أرحم من ضجيج العيال، وضيق المكان.. هنا أستطيع أن أرى السماء.. أشم الهواء .)

تصفح ما معه من كتب.. رحلة ابن بطوطة.. اللص والكلاب.. ديوان شعر.. تاريخ مصر الحديث...

تولدت لديه رغبة أن يقرأ في التاريخ .

(التاريخ هو شمس الحقيقة التي تبدد ظلام الكذب، والتزوير.. هو ذاكرة الشعوب.. لولا دروسه لعادت الشعوب سيرتها الأولى.. الإنسان حيوان له تاريخ.. أنا أحب التاريخ ولاسيما المذكرات التي دونها شهود عيان كابن جبير.. ابن بطوطة.. الجبرتي.. إنهم يدونون ما رأوه بأعينهم، وسمعوه بآذانهم.. لا يعتمدون على حدس، ولا تخمين..)

بدأ يقرأ سيرة أحد الزعماء المعاصرين.. اخترق سمعه صوت المذياع :

- المذكرات مزورة.. مزورة.

ترك الكتاب.. أصغى للمذياع.. سياسي قديم يشكك في كل المذكرات التي كتبت عن الثورة ويرميها بالتزوير والحقد.

نزلت عليه هذه الكلمات كالصاعقة.

(المذكرات مزورة كيف ؟!.. كيف يكذب الإنسان على وطنه؟!.. كيف يكذب الإنسان على أهله ؟!.. وإن كذب على هؤلاء جميعاً فكيف يكذب على نفسه ؟!!.. لا.. لا.. هذا المسئول السابق كاذب فضحته الحقيقة ؛ فراح يشكك فيها، ولكن.. ربما.. ربما.. ليس هناك دخان بلا نار)

قفز إلى ذهنه مذكراته التي كان يدون فيها عناوين الصحف الرسمية، وكلام الساسة المسئولين.. بعد الثورة، وقبل استتباب النظام.

(كيف نسيت هذه المذكرات هذه السنين الطوال ؟!.. كنت شغوفاً بملاحقة الأحداث.. لا أتذكر بالضبط ما الذي حملني على عدم مواصلة الكتابة.. ربما.. ربما.. لا أدري)

هبط السلم بسرعة.. وقف فوق السرير.. وبصعوبة بالغة وصل إلى حقيبة عتيقة أخفى التراب والإهمال.. عملات قديمة ملك وكتابة.. صحف لم تعد تصدر الآن.. مجلات أبيض وأسود.. أخيراً وجد مذكراته مدفونة تحت التراب.

(ما زالت كما وضعتها منذ أكثر من ربع قرن .)

نفض ما عليها من تراب.. أحكم إغلاق الحقيبة.. صعد إلى سطح المنزل.. جلس في الظل ؛ يتصفح المذكرات على عجل.. يختطف من كل صفحة بضع كلمات .

" ٢٣ / ٧ / ٥٢ الثورة المباركة... الجيش والشعب وراء محمد نجيب قائد الحركة... ٢٤/ ٧ زعماء الأحزاب يقابلون محمد نجيب القائد العام ليعبروا عن تمنياتهم للثورة بالتوفيق... ٢٦/ ٧ الإنذار الأخير للملك، من الفريق أركان حرب محمد نجيب باسم ضباط الجيش ورجاله إلى جلالة الملك فاروق الأول.. أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولي عهدكم... ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم... التوقيع فريق أركان حرب محمد نجيب... ٣٠ / ٧ محمد نجيب القائد العام يصدر قراراً بإلغاء الألقاب والرتب... ٩/ ٩ محمد نجيب رئيس الوزراء يصدر قانون الإصلاح الزراعي... ٢/ ١٠ محمد نجيب يصدر مرسوماً بإنشاء مجلس دائم لتنمية الإنتاج القومي... محمد نجيب يقوم بجولة في الأقاليم استقبل فيها استقبالاً حاراً، وتدافعت الجماهير ترحب بهم.. ١٦ / ١٠ محمد نجيب رئيس الوزراء يصدر عفواً شاملاً عن جميع الجرائم السياسية... ١٠/ ١٢ أعلن محمد نجيب باسم الشعب سقوط دستور ٢٣... ١٦ / ١ / ٥٣ محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة ورئيس حركة الجيش يعلن حل الأحزاب السياسية

ومصادرة أموالها لصالح الشعب، وإعلان فترة انتقال لمدة ثلاث سنوات لإقامة حكم ديمقراطي دستوري سليم... ١٨ / ٦ صدور بيان من مجلس قيادة الثورة جاء في نهايته إلغاء النظام الملكي.. إعلان الجمهورية.. تولي الرئيس اللواء أركان حرب محمد نجيب قائد الثورة رئاسة الجمهورية... في عهد الرئيس محمد نجيب تمَّ البدء في تنفيذ مصنع الحديد والصلب... فرض قانون تخفيض إيجار المساكن بنسبة ١٥ ٪ ... إلغاء البوليس السياسي... العمل على إدخال مياه الشرب والجمعيات التعاونية والوحدات الصحية في القرى... دراسة مشروع مترو الأنفاق... إرسال بعثات اقتصادية إلى مختلف دول العالم بما فيها الدول الاشتراكية للاطمئنان على إمكانية تمويل السد العالي... العمل على الاستقرار الاقتصادي بتركه للمختصين ليدرسوه ويضعوا الأسس اللازمة له... العمل على تشجيع استثمار رءوس الأموال الأجنبية ورءوس أموال الأفراد داخل القطر لتستثمر في الأوجه النافعة لتنمية الاقتصاد وتقويته ... افتتاح معرض ألمانيا الديمقراطية التي أبدت استعدادها لتوريد مصانع كاملة لمصر ورصد دخل المعرض كله للجمعيات الخيرية المصرية... ٢٥/ ٢ / ٥٤ أصدر مجلس قيادة الثورة بياناً بإقالة محمد نجيب لأنه خرج على نظام مجلس قيادة الثورة المتبع منذ سنوات وهو أن أعضاء المجلس متساوون بما فيهم الرئيس... ٢٥ - ٢٧ / ٢ المظاهرات الشعبية تعم شوارع القاهرة هاتفة " لا ثورة بلا نجيب.. إلى السجن يا جمال..

إلى السجن يا صلاح ".. المظاهرات الشعبية تعم شوارع الخرطوم وبعض مدن السودان تهتف " لا وحدة بدون نجيب "... ٢٧/ ٢ مجلس قيادة الثورة قرر دعوة اللواء محمد نجيب للعودة إلى رئاسة الجمهورية البرلمانية... ٥/ ٣ أجبرت المظاهرات أعضاء المجلس على السير في طريق الديمقراطية والتعجيل بإصدار الدستور وعودة الحياة النيابية... ٢٥ / ٣ مجلس قيادة الثورة يعلن : السماح بقيام الأحزاب.. حل مجلس قيادة الثورة في ٢٤ يوليو المقبل باعتبار أن الثورة قد انتهت وتسليم البلاد لممثلي الأمة... ٣/١٩ وقعت ستة انفجارات في أماكن مفرقة، منها السكة الحديد، والجامعة، وجروبي، ولم يُقبض على الفاعل.. ٢٧ / ٣ بعض الجماهير تواجه محمد نجيب هاتفةً : " لا للأحزاب.. ولا للبرلمان.. ".. توقف الحياة تماماً في مدينة القاهرة بعد أن قام عمال النقل بإضرابهم مطالبين استمرار مجلس قيادة الثورة في مباشرة سلطاته وعدم السماح بقيام أحزاب... ٢٩ / ٣ اجتمع مجلس الثورة وقرر العدول عن قراراته الديمقراطية السابقة، والبقاء في الحكم حتى يتم الجلاء... "

عند هذا الحد كان قد وصل إلى قمة ثورته، وغضبه.. شعر بأشعة الشمس التي تتوسط السماء تحرق وجهه.. تشعل رأسه.. تذيب عقله.. صرخ بأعلى صوته :

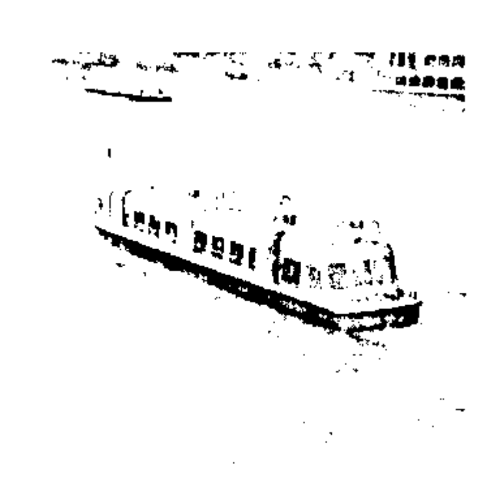
- مذكراتي مزورة.. مزورة، لقد صَدَقَ الرجل.. المذكرات مزورة.. مزورة.

مزق مذكراته.. طوح بها في السماء.. حمل الهواء الأوراق.. بينما هو هرب من الشمس، وأخذ يهبط، ويهبط إلى حيث الضجيج، والضيق، تاركاً الشمس، والهواء.



١٧

حدث في أوقات العمل الرسمية





في الاتوبيس النهري جلس ابراهيم يساوره الامل.. يتابع حركة الماء وتلاطم الامواج .

(البحر كبير وعميق.. البحر جميل ومخيف.. ملاك ومارد)

يحب ركوب البحر.. يخشى السقوط فيه.. هو لا يعرف السباحة.. لم يستحم في الترع فهو من سكان العاصمة.. لم يستحم في حمامات السباحة لأنه من حي شعبي.. لم يستحم في البحر لأن أباه لم يكن موظفاً كبيراً ولا رجلاً من رجال الأعمال.

سمع صوت حذاء نسائي يهبط السلم الخشبي.. التفت بسرعة.. كانت امرأة عجوزاً شمطاء لم تستطع الأصباغ الكثيرة ولا الألوان الفاقعة أن تخفي سنها.. خدعه سمعه.. صوت الحذاء شيء وصاحبته شيء آخر .

حدثت جلبة على السلم.. نظر.. وجد قروياً يحمل بعض خيرات الريف .

(أكيد أتى للعاصمة للعمل كبواب أو في طائفة المعمار.. لم يعد هذا الزمان زمان شد الرحال لزيارة أولياء الله الصالحين)

صوت حذاء نسائي آخر.. كاد يتجاهله.. غلبت عليه عادته الجديدة.. فتاة جميلة.. متناسقة البنيان.. مثيرة مثل كثير من فتيات اليوم.. بعد النظرة العامة همَّ أن يتفحصها جزءا جزءاً.. بشاب مفتول العضلات يهبط خلفها.. يمسح الوجوه بنظرة حادة حذرة.. هذه الفتاة فتاتي.. على الفور غض إبراهيم بصره.

(تراه من يكون ؟.. زوجها.. لا إنه لا يتجاوز الخامسة والعشرين.. خطيبها ؟ ولا حتى خطيبها.. أ يكون أخاها ؟.. مستحيل ؛ كيف يسمح لها أن ترتدي مثل هذه الملابس ؟!.. حبيبها ؟.. نعم حبيبها.. يبدو أنك نسيت في أي عصر تعيش.. من يكون إذن ؟.. هو شخص تطمع أن تقضي معه وقتاً جميلاً سمّه زميلاً.. صديقاً.. سمّه رفيقاً أو حبيباً.. سمّه ما شئت فكل هذه الأسماء عند هؤلاء سواء.)

مجموعة من الصبية يتدافعون وهم يتصايحون.. أحدثوا انقلاباً.. صفير.. غناء.. تصفيق.. نكات.. ملابسهم وكتبهم تكشف عن هويتهم فهم.

(طلاب في الثانوية العامة أو نحوها)

جلسوا في أخر الأتوبيس.. من هناك انبعثت أصوات الطبول والدفوف والزغاريد.. تحول الأتوبيس إلى فرح شعبي وأن ليس في التاسعة والنصف صباحاً أفراح شعبية.. أو غير شعبية.

أخذ إبراهيم يلاحظ رد فعل كل راكب.. القروي التفت للخلف وهم أن يصيح فيهم ليسكتوا ولكنه تراجع .

(الكثرة تغلب الشجاعة)

العجوز المتصابية نظرت إليهم نظرة ارستقراطية متعالية.. زمت شفتيها.. هزت رأسها.. لم تنبس بكلمة.. أما

(الحبيبان.. أقصد الصديقين.. أقصد الفتى والفتاة) فقد لعنا الصبية في نفسيهما .

رجل عجوز وامرأة شعبية أخذا يتحدثان :

(أكيد يتحدثان عن عيال اليوم وعيال الأمس)

طفل صغير ينظر للوراء.. يريد أن ينفلت من قبضة أمه

(ليذهب إلى حيث الصبية)

فتاتان ترتديان زي طالبات المرحلة الإعدادية.. تكثران من الالتفات إلى الصبية .

(يبدو أنهما سُرتا مما حدث.. لولا كلام الناس لكانتا بين الصبية ترقصان.. تغنيان) .

عندما رأى شاب ذو لحية كثيفة وجلباب أبيض نظيف هذا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وأخرج من جيبه السواك والمصحف وبعد أن تسوّك أخذ يقرأ بصوت مرتفع نسبيًا.. لم يتبين ماذا يقرأ .

(أكيد يقرأ آيات من الذكر الحكيم تتحدث عن انتشار الفساد في البر والبحر)

ربت شاب يجلس خلف إبراهيم على كتفه. تنبه .

- من فضلك الجريدة .

- الجريدة.. كم الساعة الآن ؟

- العاشرة والربع .

- العاشرة والربع معقول.. الميعاد.. الوظيفة .

هب إبراهيم واقفاً.. جرى ناحية الباب كان الأتوبيس قد تحرك.. عاد يائساً.. رمى نفسه على المقعد.. الأمل الذي كان يراوده اليوم مات .

قال له الشاب :

- هل نسيت شيئاً ؟

- ....

دفع إليه الشاب بالجريدة وهو يقول :

- شكراً ليس فيها جديد !

الأمواج تتلاطم بقوة.. البحر يبدو وحشاً فاتحا فاه .

في المحطة التالية توقف الأتوبيس.. بدأ إبراهيم يمارس عادته الجديدة المستحدثة بلا أي خجل .

كتب للمؤلف

(أ) كتب مطبوعة

١ - ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية . مكتبة مدبولي

٢ - الدين والسياسة والنبوءة . دار الكتاب العربي

سلسلة كتب دروس سياسية من التجربة الناصرية

١ - آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

٢ - العامان المجهولان في تاريخ ثورة يوليو ـــــــــ

٣ - إنجازات عبد الناصر الكبرى من منظور سياسي ـــــــــ

٤ - نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي ـــــــــ

٥ - أمريكا وعبد الناصر من التحالف للعقاب ـــــــــ

٦ - هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية ـــــــــ

سلسلة نحو فهم صحيح للصراع العربي الإسرائيلي

١ - اليهود والصليبيون الجدد . دار الإبداع للصحافة والنشر

٢ - اليهود والصليبيون الجدد (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة) ـــــــــ

٣ - هذه استراتيجيتهم، فماذا نحن فاعلون ؟ ـــــــــ

٤ - إسرائيل وحزب الله ولبنان، الفائز والخاسر ومن دفع الثمن ـــــــــ

٥ - فتح وحماس، من مقاومة الاحتلال إلى الصراع على السلطة ـــــــــ

٦ - اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية ـــــــــ

المؤلفات الأدبية

١- مهاجرون . (قصص قصيرة) زهور المعرفة والبركة

٢- الحرف التاسع والعشرون . (قصص قصيرة) ____________

٣- ليت قومي يعلمون . (قصص قصيرة) ____________

(ب) كتب تحت الطبع

١- دروس سياسية من ثورة يوليو لثورة يناير

٢- الخلاص الإلهي في آخر الزمان بين الدين والسياسة .

٣- الطبيعة العربية والصهيونية، الزعامات المزعومة والسياسات المدروسة .

٤- معجزة إسرائيلية أم خيبة عربية .

٥- رؤية إسلامية للحضارة المصرية القديمة .

- يؤمن المؤلف بأنه لن يُجدِّد شباب الأمة العربية والإسلامية إلا الإيمان الصادق، والفكر المستنير، والعمل المخلص، وفقه الواقع، وأنه ليس أضر عليها من النفاق، وجمود الفكر، والتواكل، والجهل بالواقع .

التليفون المحمول : ٠١٢٢٢٦٤٠٦٤٨٩

البريد الالكتروني : yuness112@hotmail.com

موقع المؤلف على الإنترنت www.albab.hooxs.com

* * *

محتوى الكتاب

رقم الإيداع

٢٠١١ / ١٤٢٣٤